عبده خال

# الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة

www.10planet.net/vb



الأوغاد يضحكون

www.10planet.net/vb

عبده خال

# الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة

منتديات الكوكب العاشر

www.10planet.net/vb

جوري:
تأتين كأغنية في حنجرة شيخ يغرغر بها ليتذكر حلاوة الحياة.
أبوك لا يكترث بالأوغاد.. فتعالي نتجاور ونقتطف غيومنا ونضحك
سوياً على فتات الناس.. نضحك على هؤلاء الذين يمكرون الحياة.
جدة

www.toplaeat.net/vb

# المحتويات

مكتبة الكوكب العلمية

www.toplanet.net/vb



منتديات الكواكب العاشر

www.toplanet.net/vb

منتديات الكوكب العاشر

الأوغاد يضحكون



www.toplanat.net/vb

١

# البلـوزة

منتديات الكويت

تعبره كل يوم قصصق في شغاف قلبه أخدوداً من الوله، يتبع ممشاها فتسيل رغبته ويزداد توتره. تصليه حمم جسده ويفور ..يفور ..يفور بعجلة يبلله طوفان الرغبة، يغرقه في ماء آسن ويذوي قبل أن تغادر عينيه، يذوي ككلب ركض وركض فلم يكن نصيبه إلا نصف ظل ولهاثاً مديداً.

اليوم وقفت على باب مغسله.

ربما قال كلاماً جساً. ربما تدلت من لسانه قطعة السكر فلعق شفتيه، لعق ريقه الدبق وماء خياله المنسكب. ربما فكر أن يقول كلاماً طازجاً. ربما سرق شيئاً من مفاتنها الخائرة ليغذي به خياله حين تتيبس الطريق. وربما انكسر أمام فتنها الطاغية فلم يقدر أن يقول

www.rewayat2.net/vb


شيئاً إذ هناك عميقاً في داخله تلجلج الكلمات، وبقي يموج برغبة ظن أنها خرجت من مسام جلده ..يتذكر تماماً ارتباكه وحيرته وبعضاً من مفاصل كلمات تفر الضحك تفوه بها، عندئذ ربما غدا نادماً على خروجها.

من كل هذه اللحظات الخاطفة بقيت في ذاكرته نتف من لحظات الدهشة التي اعترته. شيء وحيد بقي جلياً يحرك بهجته ويطفئ نشوته، يحدث هذا كلما تذكر هزيمة عينيه اللتين طالما عادتا حسيرتين بعد كل غزواته لاختراق سماكة الغطاء الذي يحجب حسن قوامها الريان، المتمايل في الهواء كأنه غارق في نغم لا يمل من الرقص.

يضرب جبهته بعنف كلما تذكر انشغاله بالكشف عن وجهها وتفريطه في التمتع بمشهد تدفق نهر صدرها المتعطش لري جبليها الشامخين.

كما ندم على تخاذل يديه اللتين لم تواصلا الزحف للمس أناملها حين مدت له بالبلورة، ندم وقضم أصابع يده اليمنى التي امتدت متخاذلة لاستلام ذلك الكيس الناعم، وعندما لم يشف غليله منها قضمها مراراً وربطها في سارية المظلة واستمر في عمله اليومي بيده اليسرى يجدف بحر الأمنيات القادمة بمراجعه المعكر.

≈

كالحلم البعيد البلعت يذكر خضرا وهي واقفة في الحقل تغطي رأسها بشرشف برتقالي صبغ بأصبغة رديئة كاشفاً عن لون حائل

بعد أن هتكت سره شمس حارقة عكست ألوانه وشحب وظل شاحباً يمور بروائح عطور محلية نافذة بينما تراقصت اجسامتها بطريقة المشتتة، ورمت عنهما فظهرتا كمصعورتين حمرتين ترقرقان من عشبهما. كان ذلك منذ عهد بعيد، ربما سنتين أو عشر سنين لم يعد يذكر بالتحديد. فقد نسي الطرق المؤدية إلى هناك وقبع في هذه المقصفة يستقبل الوجوه الملاحة والملابس الرثة التي حافظت على روائحها ودرنها.

لا زال يشمئز من ملابس العمال فيرفعها بعود خشبي ويقذف بها في برميل مدة يعني ويتركها إلى حين، وحين يسحبها يكون قماره البلاستيكي فاصلاً بينهما.

يصف ملابس الرجال بأنها مقابر لنتن الأرض، ويتعجب:

- كيف يجرؤ هؤلاء النتنون على قطف رغباتهم وهم يحملون كل هذا النتن؟!!.

ويزداد حنقه حين يقف أمام المصبغة وهي تدور وتدور، تعجن كل تلك الملابس فتختلط كل تلك الروائح لتثمر عن رائحة يشبهها برائحة ساقطة التيوس المخصية. أحياناً يحتار فيصبح مشبكاً على منخريه أنفه كيد يتقيه انبعاث تلك الروائح، لكن هذا الاحتراز لا يقيه نبعاتها، إذ تسقط تلك الروائح مع تقليبه محترقة لتحف جمجمته عنوة، فيترك مهمة إكمال الغسيل لماكينه وينزوي جانباً، ويريق على جسده ماء ممزوجاً بماء الورد، وكلما دنت خضراء من خاطره هرب منها متذكراً أنه سيأتيها حاملاً كل هذا النتن.!!

سره بشبيهه المتشبه وجسدها البض بلا اكتراث مهجس
ـ بالالالاء

وعندما مضت الأيام من غير أن تثمر تمتمقاته الخاطفة استعاض عن ذلك دمدمة كل الأغاني المهيجة في مثل هذه المواقف، تلك الأغاني التي تمجد الجمال وتسترق السامع للوعة مهمة. وكلما ابتكر وسيلة توصل صوته إليها بات كمن لا يسمع

مع الساعة الواحدة والنصف تكون قد أنهت دوسها اليومي، يقذف بكل ما في يده ويظل منتظراً عودتها. تقف السيارة أمام المضمة تماماً، في هذه اللحظة (بالذات) تكون عيناه مفتحتين على اتساعهما فحين تدفع الباب تظهر ساقاها بأوربين من تلك العلاقة السوداء، فيبين قدمان مخلفتان مستديرتان تنتهيان بحذاء يتغير كل يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم عودها طاعناً الفضاء بعلامة مدرعة رطبة تلملم عباءتها على صدرها مخفية ثمرتين نادرتين في استوائهما أصابع يديها ناعمة مرمرية كالأقلام العاجرة منتهي بأظافر ملمعة مسابه أبقت على مداد قاني الاحمرار. تعبر الرصيف تاركة جسدها يراقص الهواء والأمكنة بينما تتوقف رائحتها لتتحرر مشيتها وتثبت الأمكنة في مواضعها كي لا تتساقط حجارتها كمداً على خطواتها، في كل هذا الارتباك يرهز بقدمها بيت واحد إذ تدس عطرها في بوابة الواسعة مضمها ويحبس للدب وغلاق رذاذه

تخشن عطرها في مستودع حاسته الشمية وأصبح يميزه من بين العطور كلها لكنه عجز عن أن يعثر عليه. وقف أمام محلات العطور محلاً محلاً، فتح كثيراً من زجاجات العطور ودس بها أنفه وظلت إجابته لكل بائع:

ـ ليس هذا العطر الذي أبحث عنه

استفزه الباعة وتساءلوا عن هذا الشعور مترددين حينما أبدى استعداده لشراء زجاجة العطر المعبأة بأي ثمن كان، وقبل استعراض زجاجات العطور يترك ألف ريال في يد حامل العطر ليتأكد من رغبته في الشراء، يقف أمام العطور المرصوصة ويشد قامته رافعاً رأسه ومغمضاً عينيه، يهيم بعض الوقت حتى ترتخي عضلاته تماماً ويسقط رأسه على صدره كمن دهمه نعاس ثقيل. يظل هكذا ويبدأ بملامسة زجاجات العطر، يستبعد الزجاجات ذات التموجات الملتوية قائلاً:

ـ الجمال انسجام وانسياب، فالطرق الوعرة مهما كانت جميلة فهي في النهاية وعرة.

برفق وليونة يمسك تلك الزجاجات واحدة واحدة يستنشقها بعمق، يترك لرئتيه فرصة أن تتشبع بتلك الرائحة، ويبعث زفيراً هادئاً متقطعاً رتيباً، تتضح حسرته من خلال مسام وجهه ويعاود ظفر ابتسامته ملامساً زجاجة عطر مؤملاً أنها هي، يتنقل بينه بين زجاجات العطر النسائي من دون أن يمسك تلك الرائحة لكنه لم ييأس.

في العزبة(*) أحس رفاقه بأنه يخفي شيئاً ما عنهم، فقربوا بأحاديثهم منه فنفر منهم وخبأ رغبته في داخله. وحينما أوشكوا أن يصلوا إلى هاجسه حمل عفشه البسيط وسكن وحيداً في بيت شعبي

---

(*) العزبة: سكن ذكوري يخص أولئك المغتربين الذين هجروا عائلاتهم وارتبطوا بالغربة فجمعوا جماعات في سكن واحد [illegible] وبعد انتقال أهل البلد في القرى إلى المدن بغرض الدراسة أو العمل أصبحت العزبة غير مقتصرة على المغتربين بل تشمل هذه الفئة أيضاً.

تصدعت جدرانه وتقوضت تحت أعمدته البالية كعجوز اتكأت على عصا بالية.

مع الغبش تكون محلاته مشرعة أبوابها وعندما تخطر وتدس جسدها في السيارة يغلق محله مسرعاً ويعود إلى غرفته الكئيبة يستحضرها نغمة لا يمل من ترديد مقاطعها

اليوم وقفت على باب محله.

ترجلت من السيارة وفي يدها كيس (بلاستيكي) فاخر، كانت عيناه ترصدانها، لم تمر بصورة عمودية صوب بوابة المصرف كانت مشيتها المتمايلة تتجه صوبه، مسموع وجيب قلبه، أحس بالعرق يتصعد من جبينه مخرجاً كل العطور التي استنشقها لتحل هي هناك. مع اقترابها بدت أكثر فتنة.

- لو سمحت أريدك أن تغسل هذه الملابس.
-
- أرجو أن تحرص عليها فهي غالية.
- أبشري ..من عيوني.
- . . . . !!
- هل تريدين غسلها بالبخار؟
- لا أعرف، بدي أريده منك أن تحرص عليها.
- سأكون أكثر من حريص.
- شكراً.

انطلقت مستعجلة وتركت بين يديه شيئاً منها ومضى يبث ظل عرقها يحرس الأمكنة من أن تتساقط على عصيها !!

قفز داخل معطفه واحتضن جسده بكلتا يديه، لم يكن يعرف ماذا يصنع فقد توحش حبوره حتى أنه خرج من مكانه وهرول أمام المصعد رغماً طاقته وملوحاً بها بصورة دائرية في رقصة متوترة تخيلت ضرب الدفوف وباعة الأغاني الجميلة

أقسم أنه لم يسمع كلمة شكر بهذه الرقة والنعومة والعمق والدلال، بل لم يسمع كلاماً عادياً بخصوصية ترتقي درجات الغناء. هل راوده هذا الحب في السابق، ثم نأت هي بنفسها وتركته يفتش في بشرتها الفضية وبحاناته رؤية قرص تهوي في واد سحيق وبيض بالأسنان عبثت بشفة تهدب كثمرة رمان متشققة فاضحة نضوج حبيباتها

تقف على أهداب عينيه وتعقر سنوات عجافاً من ملوحة الغربة وجفاف البال من طيف أنثى تحرق الأيام البالية الخامسة

قبض على الكيس (البلاستيكي) متشبثاً، وكشف عن ملابس ملساء ناعمة تفوح بذلك العطر الذي أرهقه البحث عنه، دلف إلى داخل المقصورة ونثر محتويات الكيس، غرس أنفه بين ثنيات القطعتين.

تنورة كريب أسود صيفية لم تكن مبطنة، ذات فتحة في أحد جانبيها تصل إلى الورك، مغلقة بثلاث أو أربع أزرار مكسوة بلون أحمر، وثمة رسم يدوي بالخيوط الأبيض على الجانب الموازي للفتحة، وهناك رسم بارز يبدي تشكيلاً عشوائياً يوصل المدقق فيه بهيئة امرأة متكئة على نفسها، تضم وردة متفتحة بينما كانت البلوزة من (الشيفون) المشجر بألوان ممزوجة بالأبيض والأسود والأحمر لها فتحة صدر واسعة بياقة عريضة بلا كم ربطها شرائط

ندت من الجنبين، كل شريط جمع الألوان الثلاثة في حزمة واحدة بينما ظهر ذلك الرسم البارز بالشمول أسفل الكتف اليسرى مفترشاً كل الألوان.

غمس وجهه وسط البلورة واستنشق عبيرها بنهم، وفردها بين يديه، تخيل نهديها وكلما رفع البلورة من جهة الصدر هبطت، تخيل نهديها يستديران وتبرز حلمتاها في رعشة شبقة، همس بذاته
- عند كتفاتها ناضجين لا .. ربما هما أكبر قليلاً

أغلق محفظته، وخبأ الكيس البلاستيكي تحت إبطه، خرج صوب السوق، وقف عند إحدى البسطات وطلب من البائع أفخر أنواع حمالات الصدر

أي مقاس تريد؟

ارتبك ولمس بالحرج يعتريه، حاول بيديه أن يصف حجم ديننك النهدين.
- هكذا!
- ألا تعرف المقاس..؟

هز رأسه موافقاً، فتابع البائع حديثه بصلف.
- أهي زوجتك؟

شعر بالمهانة وتمنى لو يقبض بحلق هذا البائع غير المهذب، استقر رأيه على (ستيان) متوسط الحجم
- كهذا

تناول حمالة الصدر مستعجلاً الموقف، أغلق باب غرفته وفرش التنورة وركب عليها البلوزة، بعد أن حشرهما بحمالة الصدر فتكوّن نهدان مهيصان لم يروقا له، فتش محفظته وأخرج منها قصاصات أقمشة متنوعة حشا بها (الستيان) وألبسها البلوزة، فكوّر الستيان مظهرٌ ثدياً منتصباً بينما ظل الثدي الذي يجاوره منهبطاً يدعو إلى الضحك، أخذ ينقص أقمشته حتى تساوى واستطر مع الثدي الآخر لم يأنس نهدي الثديين فقد هبطت رمونتاهما وتكرمشتا من جهة الجنبتين، وكلما جسّ أحدهما هبطت رمونته من غير أن تهتز وتربو، أو ترتعش كعصفورين ذبحا بنصل مثلوم. شعر بالضيق

يذكر (المانيكان) - تلك الدمى التي يعرض عليها الباعة أحدث الفساتين - ركض إلى السوق وعاد حاملاً إحداهن، ألبسها التنورة و(الستيان) وخلع عليها البلوزة. أدهشه أن تفقد المرأة نصف جمالها حينما تكون صنمية، فركض مرة أخرى ليدخل السوق لاعناً سوء تقديره ليشتري شعراً ليلياً مستعاراً لتلك الدمية ويعود لاهثاً ليصلح جمالاً تربع في مخيلته وعقد بين يديه

عندما انتهى من إلباس (المانيكان)، كانت تلك الفاتنة تقف أمامه تماماً
تثور رغبته وسحار من جحيم الخيالات يغذي مخيلته، فيتلظى ويجري بحور مياهه ساخنة متدفقة

كانت تهمس في أذنه:

- لو سمحت أريدك أن تمس هذه التنورة وهذه البلوزة

بذل تلك الدمية بما يشتهي أن يسمعه منها

- لو سمحت أريدك أن تنزع هذه التنورة وهذه البلوزة.

مرّ عليه ليل بليد سمع فيه منها كلمات لم تقلها امرأة لرجل وفي الصباح وقبل أن يغادر فتاته قبّلها في ثغرها ومضى إلى مهمته جذلاً تقطر من فمه أعشاب هربت من ذاكرته منذ زمن بعيد.

عندما استقر في مكانه خطرت وهي تملأ الفضاء بتمايل قامتها التي لا تعرف الانحناء بينما كانت عيناها تمرد لصباح شيء يرفه خطواتها المتريثة. هزّ من جلسته ومد عنقه صوبها مغيرته متناسية ما همست به ليلة البارحة (ها هي تتحرك وتمور من معانقتها سحر ليلة البارحة) .. هتف بداخله

- كانت البارحة أثقل طراوة من الآن !!

≈

تقترب خضرا أمامه، فتاة بالسمه تمتص جموع عودها، وجرى العطب بين راحتيها من مسكة المنجل، وجرف سيل الانتظار جبلي صدرها اللذين كانا ينهضان لتقدم من ورع في محيطتها رغبة الوقوف عليهم والتفتي على سهولهم بأغنيات الرعاة العائدين قبل صباحة ليلة ماطرة، غدت فتاة مهدمة، تقول الرسائل القادمة من هناك:

- خضرا تقترب من الثلاثين وهي ما زالت تنتظرك
حرام عليك لم تعد صالحة للزواج إلا بك

ستعطب كل ذاكرته حينما لوت عنقها باتجاهه .. فتعثر من مكانه صائحاً

- يا الله

ليبرم ـ فيما بعد ـ أنه لمح برق ابتسامتها يشق المدى.. وبعدها هطل ماء قلبه في كل الاتجاهات.

≈

يعود ليلاً، يقف أمام تلك الفاتنة التي صنعها، يقبلها، ويحرك يده الراكد بها. كان قد هيأ غرفته (بلمبات) ملونة وعتمة الصور، يحمل تلك الدمية ويجلسها أمامه مباشرة ويبحر معها في براعم الهوى ..في آخر مرة أحس بصمتها، فحوط عنقها ولثم خدها

ـ لم لا تكلميني يا حبيبتي؟!

غزت باله فكرة استوطنت تضاريس مخيلته فأخذ يخطط لها كي تعرف صوتها وتخلصه من خرس فاتنته وقبل أن يغمض عينيه كانت خطته قد اكتملت وأضمر تنفيذها.

≈

هيأ نفسه تماماً، فقد وضع المسجلة فوق طاولة استقبال خدمات الزبائن ووصلها بالكهرباء واضعاً فيها شريطاً جديداً بعد أن تأكد من حساسية التقاطها لأي صوت يجول في محيطه. وانتظر مجيئها. يوم، يومان، وفي اليوم الثالث وقفت أمامه، وأحسها تصيبه بالخدر، فاختلطت أوهامه مع واقعه وكلما أوشك أن يحدث ذلك الخلط يضرب خده بيده فيلمح برق ابتسامتها تتسع

ـ هل انتهيت من غسل الملابس؟

ـ ستكون جاهزة بعد أيام قلائل.

ـ لا، أرجوك فأنا أريدها عاجلاً فلدي مناسبة

- أنا حريص على غسلها وكيّها دون أن يحدث بها أي عطب. ألا توجد لديك ملابس أخرى تودين غسلها؟
- لا.. سأعود غداً لأخذها

≈

جلس مع تلك الدمية يصفف شعرها وأدار صوت المسجلة وأخذ يسمعها تمحصت محياه عن فكرة معينة أحضر جهاز تسجيل آخر وأخذ (يمنتج) من جملها جملة ترضيه وتعيب مرتجعا وبعد ساعات من المتجة ظفر بهذه الجملة

- هل انتهيت؟ لدي مناسبة، سأعود غداً. أرجوك سأعود غداً.

كان المسجل يدور بتلك الجملة في مسامعه مراراً وهو في غياهب النشوة يستحيث بها ويحرق في بدنه مجاهداً في رعراعها لتبقيه إلى جواره بتوسل منكسر:

- إبقي فأنا لا أقدر على فراقك لحظة واحدة.

بينما صوتها يصله متقاعساً خدراً:

- هل انتهيت؟ لدي مناسبة، سأعود غداً. أرجوك سأعود غداً.

≈

مع ذهابها وإيابها تسأله:

- هل انتهيت؟

فسوف مواجهته السابقة.

وكل جانب سالله، كسب وقوداً يغذي محنته لليلة القادمة.

*

حطت عصفورتها فتساقط بدخه عبث الأصبهانة، ثم وقفت أمامه كرمح ثقب المصدر فجأة، مخنى صوتها عن بعض رفقه في حضرة قامة قدت من صخر لرجل تصخر فيه كل شيء، ولعتز في تصخره شارب كث وصوت له صرير ثالب:

– هل انتهيت من غسل الملابس؟

–

– ألا تسمع؟

– ليس بعد.

جاء صوتها مرتوياً بالتذمر:

– شهر كامل ولم تنته والله لو طلبت أن تخيطها من جديد لانتهت أظن أنك بعتها أو أضعتها

صاح متكسراً:

– تقولين بعتها حرام عليك بعتها ،أنت لا تعرفين

– إذاً أضعتها؟

ضرب الرجل المصاحب لها الطاولة بعنف

– الآن تحضرها ..أفهمت؟

خرج من محلته مهموماً، وانعطف في شارع ضيق. كان يشعر بهما يتبعانه. لم يلتفت إليهما وأدار مفتاح الباب ودخل غرفته. شاهدها تقف شامخة ساحرة وعطرها يخرج من إبطيها فتكاسل، احتضنها، ثم تركها بينما كان صوتها يأتيه متمتماً

– هل انتهيت؟ لدي مناسبة، سأعود غداً. أرجوك سأعود غداً.

طرق عنيف على باب بيته يكاد يصم الآذان، تشبثت يده بجمرة الدمية، كوم البلورة والصورة في صدره، تهاوى فجأة، شعر بالدوار، ودار حاجبه مصهوره، فأخذ يجهش بالبكاء فيما كان طرق الباب يتعالى بضجيج.

٢

# الرائحة قادمة

**قصة قصيرة**[1]
مشهد لا يمكن أن يعود شخص لسرده

على ضوء القمر المسترسل بسماجة، يسرع قامات من على جدر متصدعة وتهبط كحجار ثقيلة - داخل السور - وتثب من مكان هبوطها عجلة ربما تنفض أرديتها البيضاء وربما لا تحرص على ذلك، تتشعب خطواتها في سباق محموم، وتندس هناك بسرعة فائقة وكأنها تلعب لعبة الاختباء ليعود الصمت عبثاً متأهباً لاستقبال قادمين آخرين يعكرون سكونه بطرق سالهم ودمدمتهم لدوخشة غير متهيبين من جلال المكان.

ـ هل جاءت القبيلة بأجمعها؟

ربما كان هذا الخاطر محفزاً لي لأن أسابق تلك القامات فجعلتها وأحجز مكاناً قبل أن أجد نفسي محشوراً في الغرفة.
ـ لم أكن أتوقع أن أجد الجميع هنا

بعد أن خرجوا من شقتي يرتجفون تذكرت تصبب العرق من وجهه ويديه المتعرشتين فقفزت من جلستي مرعوباً. الآن فهمت فحوى كلامه وسر ذلك الرداء الأبيض الذي كان يتمنطق به، هببت من جلستي فزعاً حين سقطت فكرة غامضة صارمة في قاع جمجمتي وعكرت دوائر البال. ينفضني هاجس ضياع الفرصة الأخيرة وقبل أن تنضج الفكرة التي حلت برأسي كنت قد عبرت منحنيات الحارة كوميض جرح الأفق بسحطته وغاب. غاب مطمئناً لأنه وجد أفقاً يلحده كما يليق ببرق خاطف.

≈

ضجيج وطرق باب لا يمل

كان الليل مستبشراً بقمره الذي اكتمل وندى كقنديل متوهج خفف وطأة العتمة الرابضة بين الأزقة ومسح وحشة المنحنيات الضيقة. كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً للسهر والخروج لجلب قوارب الذكريات القديمة أو تبادل همسات عشاق أضناهم البعد. كان بالإمكان أن يكون مثالياً لأي شيء يمارس في حي صغير ولم يعد مرتوياً بأهازيج السمار والدفوف حول نار مستعرة في لعبة المزمار المهيجة للنزال والمقارعة. كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً

لولا تلك الرائحة النتنة التي علقت في الهواء وتوزعت في كل جنبات الحارة لتدفع بالناس خارج بيوتهم بحثاً عن نسمة هواء يجددون بها حياتهم التي يشعرون أنها تتقلص وتغور

رائحة نتنة (نتنة ليس وصفاً دقيقاً لتلك الرائحة)

فلم تكن رائحة خميرة لتكدس القمامات أو جريان المياه الآسنة أو سهك العمال المتجمع في ثنايا أبدانهم بعد يوم من عمل مضن وشاق أو صنة أولئك الذين لا يعرفون نتف شعر الإبط فيبقى صنهم يفوح من تحت أرديتهم الثقيلة، ولم تكن رائحة لسمك دهش تحت أشعة شمس حارقة أو شياط قطن محترق أو زنخة الدهون المنسابة على أرصفة مقاهي من صاحبات الباعة، ولم تكن رائحة مروحة للحم فاسد أو مدر بيض فقس قبل الأوان أو حامضة كخبز تخمر فأعطن. رائحة جمعت كل تلك الروائح وساحت في الأمكنة ولم تمكن أحداً من استنشاق الهواء بيسر فصعدت هاجساً يحرك كل الألسن بسؤال يرف كجناح عصفور:

- من أين تأتي هذه الرائحة؟

≈

لم يعد أحد قادراً على التنفس.

خرجت الحارة عن بكرة أبيها للبحث عن مصدر تلك الرائحة التي حولت حياتهم إلى فضاء خانق، ولم يخرجوا إلا بعد يأس قانط من أن يجدوا حلاً لدى الجهات الحكومية التي انقلبت على أعقابها بعد محاولات يائسة لاكتشاف مصدر تلك الرائحة.

ففي البدء اتُّهمت البلدية بسوء خدماتها وتقاعس عمالها عن حمل حاويات النفايات وقذف محتوياتها بعيداً عن الأحياء المزدحمة بالناس، وقد تصاعدت الشكوى وبرع أحد رجالات حارة المرموقين بإيصال شكوى نتن الرائحة إلى مدير فرع البلدية المسؤول عن هذا الحي ولم يبادر للاستجابة إلا حينما نشر خبر صغير في جريدة «الطورة» المرموقة تحت عنوان (رائحة غريبة تسرق الهواء)

في اليوم التالي ربضت عشرون عربة من عربات البلدية وجمعت جميع القمائم ونثرتها على أطراف المدينة، إلا أن الرائحة ظلت رابضة في مكانها فقامت البلدية باستبدال الحاويات القديمة بحاويات جديدة. وعندما تفاقم الأمر وتوالت الشكوى من جهات متعددة تحركت الصحف لمتابعة نتن الرائحة فنشرت جريدة «الشراع» استطلاعاً مطولاً وقد ظهر لعل لحي مكتسي الأمراء وهم ملقون على جوانب الطرقات كمن أصيب بوباء فتاك، ورافق إحدى الصور هذا التعليق (أحد مواطني الحي وهو يستجدي الهواء) واستضافت الصحيفة في ذلك الاستطلاع مسؤول البلدية الذي نفى أن يكون هناك تقصير من قبل جهته وحاول أن يزحزح التهم في اتجاهات أخرى، فتوجهت إشارة الاتهام إلى مصلحة الصرف الصحي إلا أن هذا المرفق تملص من التهمة بوجود مضخاتها يستحيل معها بقاء أي سوائل، وليؤكد نزاهة مرفقه أنزل عشرات من عمال الصرف الصحي ليصرفوا المياه الراكدة، وبكي ستنقل إشارة الاتهام في جهة أخرى بعيدة عن مرفقه بطل بحباب مركز صحي بالحي مما نتج عنه تفشي هذه الرائحة، مؤكداً براءة مرفقه من إحداثها. فتحركت وزارة الصحة وأرسلت أطباءها وصحت الأوكسجين مجاناً ليومين متتاليين، وعندما لم تفلح في إحداث تغيير انقلب أطباؤها وعادوا من حيث أتوا. وصرحت مصلحة الأرصاد

وحماية بيئية أن هناك أثراً للرائحة لا يعرف مصدرها بالتحديد ناهية وجود تلوث من أي نوع بسبب هي بعدات تصريف الرائحة، وإزاء هذه المشكلة التي يشتكي منها الجميع، شكلت المحافظة لجنة لاستقصاء أسباب انبعاث تلك الرائحة الغريبة وجاء في تقرير اللجنة ما يلي:

بسبب تجاور البيوت وعدم نظافة أهلها وانسياب كثير من السوائل مجتمعة ظهرت هذه الرائحة والاقتراح بث الوعي وإلزام أهل الحي باتباع النظافة في كل معاشاتهم ونوصي بإلصاق لوحات إرشادية لإزالة مثل هذه الروائح مستقبلاً . . . (٣)

وبعد التقرير سبب الجهات المسؤولة ملك الحي ورائحته وبقي الناس يقرأون اللوحات الإرشادية التي ألصقت في جميع أنحاء الحارة ويجاهدون لاستنشاق الهواء.

وعندما تركت الحارة لتتدبر حل مشكلتها ظلوا لأيام يتبادلون الرأي وصدّق معظمهم على مقولة أحد رجالات الحارة:

ـ هذه الرائحة رائحة شخص مات.

هذه المقولة تناقلتها الألسن مما جعل سيارات الشرطة تنتشر في أوصال الحي كظهور حادث لأوكار فجأة، وبعد تفتيش دقيق كذبوا تلك المقولة وتركوا أمراً صريحاً معلقاً في آذان أهل الحي:

ـ ما تقومون به يدخل ضمن إزعاج السلطات ومن يكرر الفعلة سيجد عقاباً صارماً

ثم يكترثوا كثيراً بهذا التحذير وجلس الكبار منهم لإحصاء المتغيبين

من الحارة. وعندما لم يجدوا شيئاً غائباً قال قائل[1] منهم
– ربما يكون الميت غريباً أو حيواناً محشوراً في مكان لا نعلمه. وتواصوا بالخروج للبحث عن مصدر تلك الرائحة

الليلة خرجوا جميعاً للبحث.

٭

أعيش في هذا الحي منذ زمن طويل

حي يتهم بكل شيء إلا الفرحة. لم أر أحداً يبتسم أو يتبادل التحية، الكل يدس عيونه في الأرض ولا يرفعها إلا لماماً، ترتفع الأيدي في تلويحة مبتورة وتعود إلى مكانها بسرعة متناهية، وتفاعلها يشي أنها تحية وفي حقيقة الأمر هي ساتر يحجب العين عن الابتعاد عن الطريق المرسوم لها. أقطن هذا البيت منذ عشرين عاماً، تزيد قليلاً، لم يبادلني فيه أحد الزيارة ولم أجالس أحد معرفة أجهلها، وخلال هذه السنوات بت في دعة العزلة ولم أعد حريصاً على معرفة ما يدور في جوار وأيقنت أننا نعيش كخلية الوحدة غير قابلة للانقسام أو كقبور متجاورة كل شخص في قبره.

حياة مملة وباردة. يمضي يومك وأنت منشغل بلوازم حياتية جامدة وإن أزهر أمل طارئ في حياتك فهو فرحة بأن يتحقق في الأيام القادمة، وبهذا تم ترحيل كل الأفراح للأيام القادمة التي لا تأتي. أخرج يومياً من الصباح الباكر للعمل وأعود مع المساء، كشمس

مرهقة عليها أن تنجز دورتها اليومية مهما حدث، وكروب مع المساء تختفي خلف الليل في إغماءة قصيرة وتعاود حركتها في صيرورة لا تنتهي.

مضى شهر كامل ولم أوف بالوعد الذي قطعته على نفسي، فحين كانت تحتضر آخر أنفاسها أصابني الهلع بين ذراعيها وبكيت بشعور مباغت بأنني سأبقى في هذه الحياة وحيداً كأنني أفرغت من مالها وبقيت هكذا أستقبل الغبار والهواء العابر.

وأصبح من عاداتي أن أقف على قبرها بعد صلاة الجمعة، ففي ذلك اليوم الوحيد الذي أجد نفسي متحللاً من أعباء العمل أنهض في الساعة الثامنة والنصف وأظل منشغلاً بتنظيف البيت وإزالة الأقذار المترامية هنا وهناك ثم أدخل الحمام وأريق الماء على جسدي ساعة أو ساعتين من دون أن أعمل شيئاً سوى استعمال ذلك الماء والعبث بمحتويات الحمام أو برغوة الصابون التي تتكوم على فوهة مخرج البانيو. وقبل أن يؤذن المؤذن أكون جالساً في مقدمة الصفوف قارئاً للقرآن، وبين الحين والآخر أترك عيني تتربصان بجموع المصلين في ركوعهم وسجودهم أو تتابعان تعبيرات ملامحهم المتجهمة ..وأكون من أوائل الذين يخرجون حيث أسير مباشرة إلى مطعم (صباح الخير) وأتناول وجبة الغداء بنهم مبالغ فيه، حيث أواظبني على الغداء هنا نشأت علاقة ألفة مع صاحب المطعم الذي كان يجذب كرسياً إلى جواره ويدعوني لمشاركته في شرب كأس شاي أظل أرشفه بينما يشتغل هو بمحاسبة الزبائن. كان جلوساً هيناً أمارسه كل يوم جمعة. فلا حديث يكشف بيننا إلا مع أنه ربما يكون مستعداً للمحاسبة بدعم حديثنا مككك سمجاً، لكنك ألفنا ذلك وتعودناه. وهكذا أودعه قبل أذان العصر بقليل وأتحرك صوب

المقبرة مؤدياً الصلاة هناك وبعدها أقف أمام قبرها أنثر بعض الصور الصغار وأسرد على مسامعها همساً كل ما حدث خلال الأسبوع المنصرم، أخبرها بكل التفاصيل وأمضي وقد تخلصت من الكلمات التي تحجرت في عمقي خلال بقائي وحيداً

وقفت مذهولاً أمام قبرها، كان قبراً فارغاً وقد كشف غطاؤه، بعد تراجع متكرر تطلعت في داخل القبر وهالني منظر ذلك النمل الأحمر والذي يتحرك بسرعة ويتريث قليلاً يلتهم شيئاً ما ويعود لحركته النشطة. كان القبر يقف بعيداً عني. تحركت صوبه صائحاً:

- أين صاحبة القبر؟
- لقد جمعت عظامها وستدفن في مكان آخر
- كيف هذا؟
- هذا ما يحدث لقي ..............(٣)

وبالتفاتة مدققة رأيت كل القبور مكشوفة ومهيأة لاستقبال نزلاء جدد، وقد اختفت تلك الحشائش الخضراء المزروعة على بعض القبور. كانت آثار نتف عشوائي لتلك الحشائش بادية حيث بقي بعضها متمسكاً بجذوره وبعضها مصبوغة بلهيب الزاحف لقرص تخضر أصفر بالأطراف، وعلى امتداد البصر وفي خطوط متوازية فتحت فجوات غائرة في الأرض. شعرت برعشة تعتري جسدي.

- هل فتحتم كل القبور؟

العرق المنصب من جبهته والرداء الأبيض المتسخ به يشيان بانشغاله. أكان لا بد أن أتبعه لأعرف السبب؟ كنت أسير خلفه مشياً العجل وأذرف الأسئلة المتلاحقة فلا يلتفت أو يجيب. أيقنت الآن أن الأمر لم يعد مجدياً فقد توجه صوب أحد القبور مستعجلاً

وسقط داخله! كنت ألمح يديه ترتعشان وتقتربان من صفائح القبر بتحرش. ثم أنهى جملته المتورية.

– أيها الأبله ستجد قبر زوجتك مغلقاً، لا لا بل كل القبور ستغلق، لن تجد قبراً مفتوحاً

هزأت به في داخلي، وعدت لقبر زوجتي، مددت رأسي فلمحت النمل قد صعد جانب القبر بمثابرة عنيدة، نمل لا حصر له أحسست به يقترب من قدمي اللتين تجاوران فتحة القبر وينهش إصبعي التي بانت من مقدمة الحذاء. فزعت وخرجت على عجل بينما كانت يد الغبار لا تزالان تحرشان «بصلتي» القبر في محاولة مستميتة لإغلاقه !!..

بعدها لم يعد لي مكان أذهب إليه، ففي يوم الإجازة أظل أحوم داخل الحجرة وفي أحيان أجلس قرب النافذة أتطلع لشارع مقفر من المارة سوى سيارات عابرة أو شجيرات عقر ترف ورقاتها بتعاسة في استجابة لتدفق هواء رطب ويبدو في تمايلها كجمهور غريبة جمعت تتاجر بعقته قدميه غيرت مجراها، وقد أقلعت عن الوقوف هناك حينما لامني الجيران:

– أنت تقف لتكشف عورة البيوت المجاورة؟
– أنا لا أرى أحداً.
– لكنهم يرونك وأنت تقف لتكشف عوراتهم
– والله لا أرى أحداً منهم.
– اللهم ..عليك ألاّ تقف هنا.

أقلعت عن فتح النوافذ، ولكني لا موسوس لي نفسي بإلقاء نظرة عابرة من إحداها فسبب بحصار حامل ملحمة ليصب الحاما ثقيلاً

حتى زجاج النوافذ وستر الزجاج بألواح حديدية. وعندما انتهى وجدت أن البيت غدا معتماً وأكثر أماناً، وأصبح من عاداتي مجالسة التلفاز لوقت طويل وفي أحيان أستيقظ وأطفئه أو أتركه حتى أعود.

منذ أيام لم أعد أطيق المكوث داخل البيت فقد انبعثت رائحة وخيمة ظلت تحوم في مكانها دون أن أتمكن من معرفة مصدرها. ظننت في البدء أن إغلاق منافذ البيت أدى لوجود مثل هذه الرائحة، ولولا خشية من تقوّل الجيران أنني أصر على هتك عوراتهم لعدت بالفعل لفتح كل النوافذ، إزاء هذه الخشية أقلعت عما نويت وذهبت أتشمم مصدر تلك الرائحة فلم أستطع تحديده بدقة، وعندما فتحت الباب انبعثت تلك الرائحة فورة حتى كدت أطرق الباب على جاري متوسلاً إليه أن يرحمني بتنظيف داره حتى وإن لزم الأمر إحضار أحد العمال للقيام بهذه المهمة على حسابي الخاص إذ لم أعد أشك بتاتاً أن الرائحة الكريهة تنبعث من شقته

- ماذا لو طرقت عليه الباب الآن؟ .ماذا ستكون ردة فعله لو اتهمته بمثل هذا الاتهام؟ وماذا يحدث لو لم يكن داخل البيت؟ أو ستخضعو كدرثة لو لم يكن بالفاعل، عندئذ اتهمني بالتربص بأهل بيته . ساعتها لن تجدي شكواي من هذه الرائحة[٦] لعل الأمثل أن أتلمس أمري.

قمت برش معطرات ذات روائح زكية على مدخل البيت وتجرأت ورششت بعضها على باب جاري على أمل أن تتغلب العملة الجيدة

على العطلة الرديئة، وانتظرت ذهاب تلك الرائحة ثلاثة أيام، وعندما مضت توجهت إلى الصيدلية وأحضرت كمامة ووضعتها على أنفي ومع ذلك ظلت تلك الرائحة تجوب البيت بهمة!

هذا الحي قذر للغاية رغم مظاهر الرفاهية التي تبدو للعين إلا أن ثمة قذارة تنبعث من مكان خفي، ثمة شيء يفسد ويتحلل مطلقاً رائحة تذكرني برائحة القبور المبلولة

كنت أظن أنني الوحيد من يضع الكمامة على أنفه لكن هذا الظن خاب، ففي صلاة الجمعة رأيت المصلين يدخلون المسجد مكممي أفواههم وبعضهم يحمل زجاجات العطر ويرشها في زوايا المسجد.. ربما كنت أول من وضع كمامة على فمي واقتدوا بي من حيث لا أعلم..

حياة رتيبة ومملة، لا شيء يحدث، أيام ساكنة مستنسخة حيث نزع أوراق التقويم عندما نجد خلفها شيئاً مزعجاً كل ورقة تنزع تنبهنا بالحروف ... ...[٣] أنه لا شيء يحدث!!

جلست لانتظار الغد، فما زالت عقارب الساعة تقترب من التاسعة مساء، كان الوقت يسير بطيئاً متهالكاً، بينما التلفاز يشعرك برداءة الوقت.

ضجيج وطرق عنيف متواصل على بوابة المنزل.

- من ذا الذي خرج من قبره في هذا الوقت ليأتي لزيارتي؟

قمت متبطئاً وأدرت عكرة الباب فاندفعت مجموعات غفيرة من

الناس واضعين كماماتهم على أنوفهم وبقيت عيونهم تجول في المكان.

- هيه ..ماذا حدث ..ماذا بكم؟
- ألا تشم هذه النتانة المنبعثة من شقتك؟
- شقتي!!
- نعم رائحة أشبه برائحة كلب ميت
- ومن أين يأتي كلب لداخل الشقة؟
- هذا نراه.

انطلق الجميع لتفتيش الشقة، وفي لمح البصر قُلبت رأساً على عقب،كان رئيسهم يسير متشمماً أركان البيت ووقف أمامي مستغرباً وصاح:

- هذه الرائحة منبعثة من جسدك..

غرس جميعهم أنوفهم في جسدي ككلاب تتأكد من حاسة شمهم وتصايحوا:

- هو مصدر هذه الرائحة.

صاح الرئيس

- أنت رجل ميت بلا شك!!

كنت على وشك قذف ما في جوفي حينما ألصقوا أنوفهم بجسدي وفارت الرائحة نفسها من أجسادهم، ولكي أتأكد تحاملت على نفسي ودسست أنفي في صدر كبيرهم وصحت به متقززاً:

- وأنت أيضاً رجل ميت فالرائحة نفسها تنبعث منك

يتشمم ساعده وجهه. تتشمم أنامله صفحات جبينه

وأطلت رعب البهتة:
- وأنتم أيضاً!

وكالصباء انشغل كل منهم بشم جزء من جسده وتفرقوا صامتين

❊

كان الليل مستبشراً باكتمال بدره، يسرف في صرف ضوئه فتبدو الأشياء واضحة ظاهرة

جلس واجماً وأنفاسه تكاد تنقطع، وأخذ يمد يديه عن أنفه، يبعد نفسه عن نفسه وتقفز في مخيلته صورة القبر والعرق يتصبب من جبينه متلفعاً برداء أبيض وبيديه اللتين تتحرشان بضلعي القبر وصوته الواثق.

- أيام قلائل وستجد قبر زوجتك مغلقاً. لا، لا بل كل القبور ستغلق، لن تجد قبراً مفتوحاً.

قفز من جلسته كالملدوغ ونبش خزانة ملابسه ووجد رداءً أبيض ناصعاً تدفع به على عجل، وشق متاهات الحارة بخطوات ثابتة مستقيمة وضوء القمر ينعكس ظله على الجدران فيلمح أخيلة لا حصر لها تتشجر على ظله. لم يعد السير مجدياً، هرول. وكلما لسعته سياط الخوف زادت سرعته

كان سور المقبرة منخفضاً قفزه على عجل، وأطاله انعكاس ضوء

البدر على أشباح كثيرة تتدفع بأرديتها البيضاء تثب بلحظات على جدار المقبرة وتقفز للداخل وتسير حثيثة الخطى نحو أجسادها في تلك القبور المفتوحة وتتعرض لبعض الوقت قبل أن تجذب «صفقتي» القبر فينطبق بصوت، يجعل له سكون المقبرة، بصعوبة وصل إلى قبر روحته فوجده مغلقاً، بينما كان القبر الذي يجاوره لا يزال فاغراً ملمت حوله وأرعبه عجلة أشباح تسابقه لقبره وبسرعة خاطفة جذب كرسياً مبروماً - كان مُلقى هناك - وقذف به بداخل القبر ورمى بنفسه وبحركات متشنجة صعد على الكرسي ومد يديه وأطبق «ضلفتي» القبر، فهبطت ظلمة قاتمة نحى الكرسي جانباً والتحف بردائه الأبيض وفرد قامته وتمدد في رقدته بالمستسلام.

١٤ يوليو ٢٠٠٠م

وجدت هذه الأوراق الصفراء - والتي ننشرها كما هي، علماً أنها وجدت مغلفة في كيس نايلون - وجدت في إحدى المقابر ومعها أدوات بدائية مكونة من قلم وكشافة صغير وملابس ممزقة تعود لمطلع القرن، وساعة وحذاء وكرسي بقيت من قوائمه قائمتاه الأماميتان. وما زال علماء الأنثروبولوجيا حائرين إزاء إثبات حقيقة ما تحمله تلك الأوراق ويدرسون سبب استخدام الكاتب للضميرين في كتابته لهذه الأوراق وإن رجح معظمهم أن تكون الأوراق المصاحبة للجثة مجرد قصة لكاتب، وينقض هذا الرأي بقية الجثث التي وجدت في المقبرة نفسها وهي ترتدي ملابسها كاملة - على ما يبدو - وتشارك الجثة الأساسية ارتداء ساعاتها وأحذيتها، وقد وجدت بعض عملات ورقية قديمة متآكلة تعود لزمن استخدام العملات الورقية في التعامل

وحذر علماء المستقبليات من تنبؤ صاحب الأوراق بهبوب رائحة تجتث الأحياء من على وجه البسيطة في يوم من الأيام دون أن يجدي التلقيح الطبي للهول، معلقين على تلك النبوءة بالعنوان الذي عنون به صاحب الجثة أوراقه (الرائحة قادمة) ويشاركهم هذا التوجس مجموعة من المهتمين بدراسة أحوال الآدميين وإن رادوا هؤلاء رأياً مفجعاً يعني

من الترجيح أن الموتى مر بهم موت جماعي فتفسخت أجسادهم وبقيت أرواحهم معلقة في أجساد أصابها العطب ولم يكتشفوا موتهم إلا حينما انبعثت روائحهم.

ورادوا:

هذه الرائحة تتكرر مع حدوث كارثة كونية لا يعلم بها أحد، تتسلل أبخرتها عبر الغلاف الجوي وتتفشى على الأحياء، دون أن يشعروا فتبقى الرائحة دليلاً على تحلل أجسادهم.

ويرى علماء النفس أن مثل هذه الحالات يمكن أن تحدث بنسبة ضئيلة لا تصل ٢ ٪ (عبر تاريخ الإنسانية الطويل) تحدث للبشرية في حالة الإحباط الشديد حيث تشعر النفس بكآبة عميقة يصاحبها شعور بالتحلل الداخلي وتفقد بهجة الحياة مصحوبة بشعور طاغ بأن الروح فنيت ولابد من ترك الحياة بأي صورة كانت.

ويتم الآن تجهيز أحد الرواد للعودة إلى الزمن الذي

ذكره الكاتب لجمع بيانات تكشف أسباب تلك الرائحة وإن كانت هناك معارضة لإرسال شخص بديل، حيث يرى الأطباء أنه من الضروري استنساخ صاحب الجثة وإعادته لزمنه لاكتشاف الأسباب الحقيقية لهذه الرائحة ويشجع الجمهور إتمام هذه الفكرة بنسبة ٨٨٪ بتحريف يكلف الشركة الوطنية لإدارة الثروة البشرية مليارات من الريالات حيث يرون ضرورة استنساخ جميع الجثث وإعادتها لزمنها مع نقل بصري مباشر لما يحدث لهم عند عودتهم لزمانهم

وتخضع جثة صاحب الأوراق لتحليل الجذور الجينية لمعرفة سجله للوحي قبل المغامرة في إعادته لزمنه وإن كانت تراجيهم معقدة لم يعلنوا عنها صراحة

ويقول البروفيسور خالد عبدالله

هذه الجثث هي تحدٍّ حقيقي لتطورنا الحضاري، فليس المهم كم تتكلف لاكتشاف أسباب تلك الرائحة بقدر ما تحققه من إنجاز علمي لإماطة اللثام عن كارثة جماعية لم تذكرها وسائل الإعلام في زمنها ولم تحاكم المتسببين في إحداثها واكتشافنا لأسبابها يمنحنا فرصة قضائية لمحاكمة أولئك المتسببين وتطبيق العقوبة عليهم في حفلة تجاح للتجارب التي تجرى الآن لإعادة الموتى الافتراضية

وإلى الآن مازال العالم كامل الصحراوي في زيارة للمريخ لتبادل وجهات النظر مع بعض علماء الكائنات الحية

حول هذه النخبة التي غدت شاغلة للجمهور

ملاحظة: لأن أرشيفنا الورقي لم يحفظ كاملاً، لم نستطع العثور على الاستطلاع الذي أشارت إليه الأوراق، هذا إذا كان المقصود صحيفتنا وليست صحيفة أخرى وجدت في العهد الماضي بهذا الاسم أيضاً. نقول هذا لأن جريدتنا في ذلك العهد لم تكن من الجرائد المرموقة!!

الهوامش.

(١) أدرجت هذه الأوراق تحت مسمى نخبة قصيرة بناء على الشرح العادي الاجتماعي ياسين الخفاجي وسعى الفريق أن تكون بهذه الصورة محكمة إن كان عليه العرف في كتابة القصص في تلك العهد، وقد ثبت اسم من كتب تلك الأوراق وعن بطاقة شخصية تحمل اسم (عبد حال) للجهة التي وجدت ذلك الفير

(٢) كلام مطموس لم نستطع من فك الجملة ما يمكن أن يؤول

(٣) يوجد كلام مطموس لم نستطع تفحصه بعينه بحرفها هذه الأوراق ترابط فقرة كاملة ولم يتأ أحد منهم وضع كلام بديل وغلّب بعض الدارسين بهذه الورقات أن الفقرة المطموسة فيها توصية من قبل الجهة المتكفلة بدراسة مخلفات الرائحة تحيل في معناها أن الأمر لا يعدو كونه رائحة ليس بها من خطر على صحة الشعب ولا يستوجب كل هذا بهذا جسمه إلى ذلك ما يجري في سجلات الحافظة على مثل هذا الظهور ثم يحصل الأمر يبدو وكأنه حلال في حلال لكن الأمر أهم هو عدم وجود تفسير منطقي لمثل هذا الموت الجماعي

(٤) ذكر اسم شخص، لكن الاسم لم يكن واضحاً فاستبعد العنصر التالي (قال قائل منهم)

(٥) كلام مطموس

(٦) عليه، لا تستطع لم يشرحوا لنا سبب هذا العصر الشديد ويبدو أنها في حاجة لترتيب الأوضاع الاجتماعية السائدة في تلك الفترة وأسباب هذا الاحتلال الذي تشير إليه الأوراق

(٧) كلام مطموس

نصفحه الإلكترونية من جريدة الأطوارة الصادرة في تمام الساعة الواحدة ظهراً تاريخ ١٢ - ٤ - ٢٠١٦م

٢

## الذباب

ما زلت أحس كرب التوجيه وأقف أمامه بارتباك، وعيناي تركضان في هذا المكتب الأنيق ببلادة وثمة قلق ممزوج بعصبية يتمدد في صدري وثمة خاطر يحاكمني.

– خرجنا كنا في رحم واحدة، فلماذا هناك سادة وعبيد؟

أكان لا بد من أن أقف هذه الوقفة الغريبة، وقفة أشبه بالتماثيل المصنوعة بيد نحات شهير السحرية في صحرويانه المشوهة بوقفتي تلك كنت ممثلاً للضعف، أقف مرتبكاً محترماً نصف قامتي حيناً ومبلاً يدي أحياناً، أحدق بمقدمة حذائي وبر السجاد الناعم متتبعاً التعرجات التي ترتسم على ذلك السجاد ذي الوبر الحرير ومبعثراً خواطري خارج هذا المكتب.

كنا مهاة لرحى طاحنة قدحت في ليل بهيم. من أين تأتي هذه القدرة لتشكل مباهجنا وتجعل منا الآمر والمطيع، الحرير والدبس، السيد والعبد؟

مضى نصف ساعة على وقفتي هذه من غير أن تنبس شفتاي بكلمة. خلال هذا الوقت الذي استطال تمنيت لو أنني أستطيع الركض خارج هذا المكتب فلم نعد رغبً في العمل، تطلعت إلى هذا الكرت الذي أحمله، هذه الورقة الصغيرة الأنيقة التي لا تحمل سوى جملة غامضة ومبتسرة وتشي أن ثمة دناءة ملتصقة بها

عزيزي أبو حسام.
حامل الكرت إنسان عزيز، أرجو تدبير أمره

مع تحياتي

هذه الورقة الصغيرة العاطرة تحاول دفع الدمامة عنها، بنصاعة أرضيتها، وتصميمها البديع، وأحرفها المنمقة كخيوط حرير تشابكت وتمازجت كأغنية سمعتها بلحن النهوند الحزين الباعث على دمع الأحباب والشجن المر، ورقة أنيقة تخفي خلف جمالها دم فاسد وإثم عظيم.

هذا الكرت لم أحصل عليه إلا بعد ركض استمر شهوراً عدة بدأت بوعد من جارتنا التي دأبت على مجالسة والدتي في الضحى لتناول أقداح القهوة ومضغ لحوم الغائبات من الجارات اللاتي يتأخرن عن موعدهن في مشاركتهن تناول فنجان الصباح، وكانت والدتي تستريب من جارتنا تلك بسبب كثرة معارفها وتبرجها بسنها غير متورعة عن ذكر إعجاب الرجال بقوامها الهارب من غلالته، ومدعية أن عيونهم ترف بين نهديها الشامخين، ومقسمة أن أحداً لم يجرؤ

حتى بناء عشه على قمتيهما حين تشيح عنهما عيناها في محاولة نحو صحيرة. كان لسانها السافر يجري باستراق نظرات خاطفة لتلك القمتين اللتين تعدوان كهضاب الزبد وكلما انحنت لتتناول صحون قهوتهم تبدوان كجنينين حبستهما رحم ضيقة تقتضب كحبور مضيء.

التصقت نظراتي المتورطة بين أوصال إبطيها مراراً، وفي كل مرة تتركني هناك أتلصص للوصول إلى نهاية جذعها من غير أن تكترث كثيراً بمعصيتي، وإن كنت أحس أنها تمنحني فرصة لتشمم روائح تلك الغابة حين تمد لي بشيء ما، فتدنو حتى تترك شيئاً من جسدها رهينة بصري، وتسبل عينيها في حركة غير بريئة البتة

كانت أمي توبخها في أحيان كثيرة وعندما تجدها تقف على الباب تمسحه بلسان مترنحاً وتجالسها، حتى إذا خرجت رمتها بالظنون المشينة ولا توقفها إلا باستغفار مطوّل وسرد كل أذكار استحضار الحصن وتنهي أدعيتها ببراءتها من تحمل غيبتها يبدو أن وقوفي كأعمدة الإنارة الخربة جعلها تمضي في التودد إلى بجرأة ودعوتها في كل حين لتبادل الأحاديث مترنمة إليها بصحبة مياسة، ومع هذا الإغداق المفرط توصلت زيارات جارتنا وعدت جلستها الدائمة، وفي لحظة اعتداد بنفسها وعدت والدتي وعداً قاطعاً بأن تبحث لي عن عمل من خلال معارفها بعد أن اشتكت لها أمي سوء حظي وعثراتي التي لا تنتهي وخشيتها أن أهيم في الشوارع، فرفعت خصلة شعرها وهي تطرقع بمادة مست من مضغها

ـ أعدك أن أجد له عملاً في القريب العاجل فقط امنحيني بعض الوقت.

فحضنتها أمي متوددة ومتصنعة تقبيل وجنات جمالها التي لا

تنصب، وقالت في تصنعها بأن أخرجت من دولابها قطعة قماش ألمست أنها لم تشترها إلا لها، مبهجة أن هديتها ليس لها علاقة بنصيبها الذي تحترم القيام به، صمتت جدتنا بعدها وتناولت قطعة القماش بتأفف مظهرة ولعها بشراء الغالي من الثياب وذاكرة محلات الأقمشة التي تبتاع منها، صاحت أمي حجة من تبجحها حول رخص تلك القطعة القماشية لكي جارتنا مسحت صلفها بجملة باترة

- الهدية ليست في قيمتها

وأطلقت أسارير وجهها من جديد

- ما هي إلا أيام ويكون ابنك موظفاً يشار إليه بالبنان

عرفت أمي بديهيا لمساء تقطرها بالدعوات التي لم تكن جارتنا جديرة بأدناها

وتسلسلت التوصيات، وفي كل مرة كنت أحمل كرتاً من شخص الى آخر حتى أتمرس كل تلك التوصيات حصولي على هذا الكرت.

عندما تسلمته شعرت بضآلته وكدت أقذف به وأعود للتسكع على أرصفة المدينة، لكن جملة صارمة انبرت من أحد الأصدقاء جعلتني أتمسك به بشدة.

- بواسطة هذا الكرت أنت تمسك بوظيفة أكيدة، فإياك ثم إياك والتفريط بهذه الفرصة الذهبية.

اكتشفت أهمية هذا الكرت حين كنت أعبر دهاليز دائرة الشرطة، فما أن يستوقفني أحد وأبرز له ذلك الكرت حتى

يسمح لي بالدخول إلى أماكن لم أكن لأجرؤ على الاقتراب منها، أو التفكير بالوصول إليها. وعندما وقفت أمام بابه رأيت مجموعة كبيرة من المراجعين تستعطف ذلك الرقيب بصبور لأن يسمح لهم بالدخول، لكنه كان يقف بكل صرامة أمام أي طلب رافضاً حتى الشروع في الحديث. كان فمه يطبق على تعب سنين طويلة ويجاهد نفسه للوقوف لأداء التحية العسكرية إذا مرت بنا إحدى الرتب العالية.

عندما وقفت أمامه رماني بنظرة جانبية - بالرغم من إبراز كرت التوصية - فامتثلت لأمره وأخذت أنتظر أن يسألني مرة أخرى عن أمري، لكنه لم يلتفت إليّ فتجرأت ووقفت أمامه مباشرة ومددت الكرت في وجهه - هذه المرة - وقلت بصوت واثق

- أحمل له هذا الكرت فأنا على موعد مع سيادته
وأخشى أن يمر الوقت المحدد من غير أن تخبره

لم يكترث بي بل أبعدني عن وجهه بيده:

- استرح

شعرت أنني أتصاغر وأن كلماتي التي أطلقتها كانت محض تبدد الصمت، فرفعت صوتي بحزم محاولاً إكساب نفسي أهمية.

- أقول لك أنا على موعد مع سيادته ألا تفهم؟

نظر في وجهي بإرهاق، وكمن يزيح تعباً إضافياً تمتم

- الكل هنا يقول إنه على موعد.

وكمن يواسيني تمتم:

ـ انتظر قليلاً، لقد منع دخول أي شخص

كدت أتراجع لولا أن امتد يدخلني الخجل من تلك العيون المحدقة بهيئتي فتلعثمت على الفور:

ـ سوف أحملك مسؤولية هذا التأخير

وعندما رأى تصميمي تناول الكرت ودلف الى داخل المكتب، بينما كنت أستغرق النظر لتلك الوجوه التي ترمقني بمشاعر مختلفة، مهيئتي لا تميز التهمة بأعيني، لسعني خاطر مقيت

ـ هذه الوجوه تأتي من دهاليز النسيء

رب بادرت إلى ذهنهم صورة جارتنا التي تتصنع مثلية وهي تقسم أن جسدها الهدوب من أعلاله يخطف اللباب، وأن ضحكتها تفتح الأبواب الموصدة، وفي محاولة الإغواء الصغيرة التي تقوم بها تحمل وعودها مفاتيح ذهبية، وكلما حاولت إبعادها عن مخيلتي طفحت تلتمس بملابسها التي تخلت عن دورها حيال جسد يتراقص ويمور برغبة متأججة تهمست بجوار روح عشق الإبحار في المواني البعيدة .ربما كان الكرت يحمل رائحة المنامة تلك !!

عاد الرقيب مادّاً الكرت ليدي وماسحاً المجال أمامي للدخول وماداً بيده الأخرى مجموعة حبوب التسلط ومراهقتي تمسحني موجة المكيف البارد وشعرت أنني ألف مختنقاً، فقد كان المكتب واسعاً وثمة شخص يجلس خلف مكتب أنيق، فتوجهت عمودياً باتجاهه، ومددت يدي بالكرت الذي أحمله فصدرت عنه حركة لم أع فيها دعوة للجلوس أو الانتظار موقف متحشرج وكلما حاولت أن أتحدث أتراجع أمام ابتسامته

ولا مبالاته. كان يجلس خلف مكتبه - بجسمه الفارع وملامح وجهه العتيقة القاسية - منكباً على الكتابة وثمة تأمل يشع من خلال تجاعيده المنتشرة في عبوسه. تحتلست النظر لرتبته المعلقة على كتفه وكلما حاولت أن أتذكر تسلسل الرتب العسكرية، أعجز ولا أقدر أن أحدد في أي سلم من سلالم العسكرية يقع التاج والمقص. كانت أعلى رتبة عسكرية عرفتها رتبة ملازم حينما سافر أهل الحي أن إسماعيل ولد السقا أصبح ضابطاً في الأمن العام وكف الناس عن تعييره بلقب (قرعه) وأصبح محل حفاوة الجميع، وكف أمي نفسي بأن يحتفل بي أبناء الحارة أسوة بإسماعيل الذي كان يشاركني اللعب والبلادة.

عندما صرحت لأحد الأصدقاء بهذه الأمنية ضحك في وجهي كثيرا وأردف:

- إذا عملت بالعسكرية ستكون جندياً ممسوحاً لا تحمل على كتفك إلا الأوامر

لكنني تماديت في عنادي ونمطية عجزي.

- سترى عندما أعود وأنا حامل نجمتين كما حملهما إسماعيل وربما أجد أكثر منه.

ضحك حتى امتلأت عيناه بالدموع

- يا عم نجمتين..

أحسست بحرقة على نفسي من تلك السخرية فعاودت عنادي.

- سترى.

تابع مستغرباً:

ـ صحيح، فأمثالك يقضون كل الليل ساهرين والخوف
أن تعود لنا وأنت تحمل نجوم السماء مجتمعة

وتركني وهو يلعن العناد الأجوف والمكابرة التي قذفت بأمثالي في طريقه.

يبدو أن سحر هذا الكرت موقعه، فبعد أن يشير لي بمقابلة صاحبه كف عن العمل، ومن أنا أقف كأحد أعمدة هذا المكتب لا أجرؤ على الجلوس أو الكلام. هذا الصمت المهيب جعلني أحرك عيوني بحثاً عن أي شيء أتسلى به وأقتل هذه الدقائق التي تطحنني في المكتب نافذتان إحداهما غربية والأخرى شمالية تغطيهما ستائر من الساتان امتزجت ألوانها بأرضية سوداء وتداخلت لتعطي أشكالاً هندسية خلابة، وفرشت أرضية المكتب بـ(موكيت) سكري ذي وبر غزير بينما استقر المكتب في صدارة الغرفة ممتداً بمسافة ثلاثة أمتار، لونه التمري اللامع يشي بثمنه الباهظ وقد استقرت عليه ملفات ومقلمة ودباسة وصورة لطفلين تقافز من عينيهما شقاوة محببة.

في انشغالي خشيت أن يحدق بي مجلة أو يتحدث معي، فتركت كل شيء وترقبت أي لفتة منه، كان لايزال منهمكاً في الكتابة وقد طرأت عليه (برهة) مفاجئة فهش بيده صعوداً وهبوطاً. كانت ثمة ذبابة زرقاء كبيرة قد استقرت على المكتب وحكت برجليها مؤخرتها وعبرت بورقة للأسفل وعاودت التحليق واستقرت على خشبه، وجبهته، شاربه، شعثه لمخاصمتي. كانت تحط على أي جزء من وجهه وتطير من أدنى حركة تصدر من يده وتستقر على المكتب ثم تعاود التحليق والهبوط على ترحة وجهه الواسع بخفة

وسرعة خاطفة. المكان الوحيد الذي كانت تستقر فيه بلمحطات ولتنعم بقليل من الراحة كان بين شفتيه منفرجتين اللزجتين فتهبط وتمد بورها وتعرسه في الشفة السفلى حتى ترتوي وستند إلى قوائمها الخلفية في فترة سريعة مرتجفة لتعاود التحليق مرة أخرى، وتذاب حركة يديه وعار وجهه بالضيق، فلاقت عيناه فرمقني بازدراء. كنت متحيراً فمددت له الكرت الذي أحمله، لم يمد يده واكتفى باختلاس نظرة سريعة ومباغتة للكرت الذي أحمله، وعاد للكتابة. وعدت أحدق في دنث المكتب الواسع وأتمنى لو أنني أستطيع أن أتحرك لأهرب من هذا الموقف. كنت أفكر جدياً في ترك مكتبه وكنت همست بدنث مدعب إلى مخيلتي صورة أمي التي ستصعق بأقذع نعوت لو أخبرتها بنكوصي، وستذكرني بكل ما صنعته أبي معها، وقد تتمادى في شتمه وتنعتني بـ(ذيل الكلب) كلما ضقت ذرعاً بها وبتذمرها وتذكيري الدائم بجناية أبي على حياتها وما خلفه لها من حرائق لم تطفئها عظام أبي الرميم كانت تقول دائماً

- لم يرض أن يذهب للآخرة من غير أن يترك لنا صورة تذكرني بشقائي معه.

وسرعان ما تصور ذكرياتها القديمة فتلعن اليوم الذي جمعها برجل لم يكن يعرف في الدنيا من شيء سوى الارتماء على السرير والشخير في كل الأوقات، وقد تقذفني بأي شيء في يدها صائحة بغيظ

- يلعن أبو هذا البطن الذي حمل بذرتك.

ما زلت أقف أمامه متخشباً متصنعاً أنني أستطيع الهرب، وراودت نفسي بذلك مراراً، بعد أن عبأت خواطري المتهيبة من غضبة أمي بتدبير حكاية محكمة الإتقان تقنعها بعدم جدية من ذهبت إليه وإذا

ثم تصدقني فلتقل ما تقول، أريد فقط أن أهرب من هذا الذل المميت.

أجدني أقف أمامه كالأبله ومن غير عمل شيء سوى التحديق به والاستمتاع باحتقار تلك الذبابة لأمعه والالتصاص لي بازدرائها من جوف شفتيه المتخاصمتين. رأيتها تقف عند جذر أسنانه كبهيمة ترتوي من نهر دبق رجلاها مستندتان إلى جذور أسنانه المنصرة وفمها غارق في ريقه الدبق الذي ارجع منسوبه وكاد يطفح للأعلى بغير اكتراث من صاحبه، كان مهتماً بتسويد تلك الورقة التي أمامه بكلمات غامضة وشبيهة الحروف، كان كل شيء في وجهه صمداً قاسياً باستثناء ذلك النهر الذي جرى بين شفتيه المتباعدتين. يبدو - الآن - أنه لا يستطيع بكمشة الكتابة فكلما استمرت ريشة القلم على الورقة رفع يده هاشاً تلك الذبابة الزرقاء التي أصرت على مضايقته ومواصلة عبثها لتحطيم صخور وجهه. قذف بالقلم جانباً واستدار بجذعه لأعلى خلف كرسيه ضاغطاً على مفتاح جرس استجاب له حارس المكتب بسرعة عجيبة. ليظهر ذلك الرقيب المعجور بقامته المنحنية والتي جاهد كثيراً لاستوائها وتأديه التحية العسكرية حيث خطا خطوات سريعة لا تتناسب مع عمره الكبير وألقى بالتحية بانضباط بمقصه الشاحب والحيوية، وقبل أن يمسح يده من على جبهته كان الصراخ يملأ فضاء المكتب

- ألم أقل لك لا تسمح لأحد بالدخول!؟

تلعثم الرقيب وبلهجة مبحوحة اعتذر

- قيل لك إنه مبعوث من عند (أبو وائل) وأنت أخبرتني أن أسمح له بالدخول حتى سعادتك بذاته.

وابتلع ريقه بصعوبة وأكمل.

- صحيح أنك لم تتكلم ولكنني فهمت من إشارتك أنك موافق.

رمقني بنصف التفاتة وكأنه تنبه لوجودي. كانت التفاتة أقرب إلى الاحتقار من الترحيب وصاح بالرقيب

- هناك من أزعجني ولم يمكنّي من استكمال كتابة التقرير في غاية الأهمية.

تطلع إليّ الرقيب معاتباً، فسحبت عيني عن اتساعهما وحاولت إخباره أنني حافظت على تخشبي منذ دخولي إلى هذه اللحظة، كان ينظر إليّ باجتهاد ولا يعرف ماذا يصنع، وأخرجته من تردده تلك الصيحة العنيفة التي صدرت من سيده.

- هيا قم بعملك.
- .....!!
- خلصني من هذا الإزعاج فأنا غير قادر على العمل

تحرك الرقيب باتجاهي وأمسك بيدي في محاولة لإخراجي، فازداد تهيجه

- ليس هذا!!
- ليس هناك من أحد سواه يا سيدي.
- بل هناك.

وكز على أسنانه:

- أنت مهمل لا ترى إلا القريب من عينيك، تلك التي أكلهما الزمن.

ارتعب الرقيب كثيراً وبنغمة أقرب إلى الرجاء تساءل
- ومن هو ذاك يا سيدي؟

كان لا يزال جالساً خلف مكتبه وصوته يتطاير من بين شفتيه المتلاصقتين
- أنت لم تعد تصلح إلا لعد ما بقي لك من أيام. لا أعرف كيف بقيت ممسكاً بوظيفتك إلى الآن؟

كان الرقيب زائغ البصر يتلقى تلك الكلمات النارية ولا يعرف ماذا يفعل، أعاد محاولة الاسترضاء
- سيدي، إنني أقوم بما تأمر به على أحسن وجه. من ذا الذي ضايقك وسأخرجه في الحال

صاح به حانقاً:
- ها أنت تضيع وقتي بأسئلتك السمجة.

وأردف متعجلاً حتى أن لعابه تطاير على سطح المكتب
- لا أريد إضاعة الوقت أكثر مما مضى.

وحين لمح أن حارس مكتبه ما زال شارداً حائراً صاح
- اقترب لا طوّل الله لك عمراً.

وأشار بغيظ صوب تلك الذبابة الزرقاء التي استقرت على الطاولة، فتحرك الرقيب صوب تلك الإشارة وأخذ يتطلع، وتمتم.
- والله لقد قمت بتنظيف كل بقعة في المكتب أكثر من ثلاث مرات كي لا أغضبك

صاح بانفعال مبالغ فيه:
- أنا لا أتحدث عن نظافة المكتب يا غبي
- !!؟!!
- بل عن هذه الذبابة التي لم تجعلني أكمل مهمتي.
- !!؟!!
- فكيف سمحت لها بالدخول؟ عليك بإخراجها الآن!!

انسحت حدقة الرقيب وردد من دون قصد
- ذبابة.
- أو رأيتها حصاناً يا غبي؟ نعم ذبابة
- ولكن..
- لا أريد كلاماً زائداً. ألا تعمل هنا حارساً وتتقاضى راتباً ..هيا قم بعملك وأخرجها.

تحرك الرقيب بسرعة صوب الباب، فصاح به
- إلى أين أيها الأبله؟
- سأحضر الفليت.

صاح الضابط بغيظ كمن يهم بتمزيق ملابسه
- ألا تعلم أن المبيدات تسبب لي حساسية وستعطل عملي لشهر كامل؟

رد الرقيب من غير شعور
- نعم نعم تسبب لك حساسية.

وظل شارداً، ليصيح به:

– هيا أخرجها بالهش أو بأي طريقة كانت

وبهمة بدأ الرقيب هش الذبابة التي أصبحت تنتقل من مكان لآخر، والرقيب يتبعها أينما اتجهت، وقد خبع (البريه) وأخذ يصيح عليها كالمجانين في زوايا المكتب فتمسحه قليلاً من الفرح ويعاود التحليق في الأماكن الواسعة والتي يصعب عليه ملاحقتها، أو تتجه مباشرة إلى وجه سيده فلا يقدر على شيء سوى انتظار أن تغادر ذلك النهر الجاري إلى مكان آخر لم يكن قادراً على التركيز محاولاً بتتابع تحقيقه بسمع أمرٍ وبعض الشتائم المتدفقة تخرج من أفواههم وكلما دنا منها خيره أمر أو شتيمة تتابع هشه بعشوائية، فجأة وجدت نفسي أشاركه متابعة تلك الذبابة الزرقاء وهشها فكانت تنتقل بخفة وسرعة. صاح بنا محتداً:

– يا أغبياء افتحوا الباب وهشوها باتجاهه

صاح الرقيب.

– نعم هذا هو الرأي الصائب.

وجدت أن هذه الشتيمة قد أدخلتني في دائرة اهتمامه فقد سمعت أبي توصيني في إحدى المرات

– إذا سبك الكبير فهذه بداية الخير الكثير

مفخوت الله أن يمكنه من شتيمتي مرة أخرى!!

اقتربت منه ملاطفاً:

– سيدي هل تريدنا أن نمسكها حية أم أنك لا ترى مانعاً من سحقها؟

تطلع علي في دهشة وسالت شتيمته كسطر مبهم
ـ قبحك الله ..يا وغد.

لا أعرف بالتحديد بقية تلك الشتائم فقد تمايت في إظهار الحرص على إخراج تلك الذبابة حاسبة في أعماقي
ـ (يا ولد شد حيلك) ربما تكسب بعض رضاه.

فانتزعت أوجه الرقيب الذي كاد يتحرك بصعوبة وقد بدأ الإعياء يجري في مفاصله، وثمة تمتمات يهمس بها في داخله بحذر، لأجد نفسي أصيح به
ـ تعال من هنا.

وأخذنا نهش الذبابة وأثناء الهش كانت تراوغ من أجل الوقوف على شمتيه موقفاً حائلاً بينها وبين مرادها في محاولة مستميتة لمنعها من إعادة هبوطها المستمر على وجهه حتى إذا ضيق عليها الرقيب الخناق وأصبحت على مقربة من الباب أسرعت على عجل بفتح الباب الذي وقف خلفه مجموعة كبيرة من المراجعين والذين رأوا الغضب يتطاير من وجه الضابط بينما رأونا نهش تلك الذبابة التي استطاعت التملص من الزاوية التي حشرناها بها ترقب معاودت للتحليق في أرجاء المكتب، وقفوا للحظات متأملين حركاتنا مبدين دهشة لتلك القفزات المتتالية، وحين فاض الغضب صاح الضابط صيحة أحسست أنها شققت سقف حجرته:
ـ قلت ..أخرجوها.

صحت بالجمهور.

ـ ألا تسمعون؟ ساعدونا في إخراج هذه الدبابة اللعينة !!

انبرى أحد المراجعين لمساعدتي بعد أن قذف بنفسه جانباً، فاكتشفت فتحة من قبل حين وجدت أن جميع المراجعين ساهموا مراجعتي في حشر تلك الدبابة الزرقاء؟!

# الماء يسير باتجاه واحد

أخبار الذي صعد إلى السماء:

- نزول عمارة الشرقي بخطى ولا يترك خلفه سوى أساطير غامضة
- المرور يقف في مكان الخطر ويكتشف الكارثة.

**كتب ـ يوسف الغالب**

ليس هناك إلا رائحة رطوبة دهنية تحوم بالمكان ببلادة وتشكل العرفة تبدو محنطة بعد أن أسدلت ستائرها، وتموجت بداخلها فوضى مضطربة فلم يبق ثابتاً إلا بعث اللوحة الزيتية العتيقة وذلك الرنين المتواصل

كانت (هنية) قامته توشك أن تنطبق على تلك اللوحة التي سكبت فيها عينيه ووقاره. ورنين الهاتف يمزقه من تأمله ـ بإلحاح ـ فيتحرك ببطء شديد، ويرفع سماعة الهاتف، ويصمت بوجه جامد كجدار

قديم، فجأة تهاوى وظل صامتاً بينما عيناه تذرفان دمعاً غزيراً أخذ يكفكفه بيده، معانقاً نشيجاً مختلجاً بصدره حاول جاهداً إخماده، فاعتصره وكلما أمعن في ذلك تهاوى حتى أصبح كجذع متفحم تمتم بصوت متداعٍ:

– لم أعد صالحاً لشيء سوى للموت !!

خرجت كلماته باردة واهنة، وكأن الموت بدأ يسري في مفاصله، ولم يرد على جملته تلك شيئاً، فقد ترجى سماعة الهاتف في حين كان ثمة صوت متباكٍ يئن من الطرف الآخر

عادت الغرفة تسبح في سكونها، فأسلم جسده لأحد الكراسي، وتناول سيجارته، واجترّ نفساً عميقاً، وترك عينيه تتابعان زوبعة الدخان المنبثقة من فمه بكثافة.

كل شيء فيه يبدو متآكلاً: عيناه تطفحان بالعمش، وأجفانه المتكسرة تشجرت في عراك محموم. شفتاه قاتمتان سوداوان تقرشف على طرفيهما زبد متيبس. شعره منتف محروق كبقايا ثوب بالٍ أكلته أشعة شمس عمودية، وسحنته باهتة شاحبة غادرها الدم ولم يبق لها سوى زرقة تذكرك بالجثث. سمة التحنيط لا شيء يتحرك فيه سوى نفس بطيء يدخل، ويخرج برئة الليل لوحش تحرك كمجنون هرم واستلقى على سريره الرث كجثة يسير فيها العطب بخطى حثيثة. أسند رأسه إلى وسادة، وأشعل سيجارة أخرى وحدق بصره في لوحة تدلت إلى جانب الجدار. تلك اللوحة التي تمثل سفينة موغلة في الإبحار وعلى متنها استقر ركب واحد له ملامح غائمة ويشير بيده اليمنى باتجاه موجة هادرة تقافزت إلى مقدمة اللوحة متخذة هيئة وحش أسطوري بينما كاد لون السماء

ساكناً محنطاً بحمرة ملبدة وفي فضاء اللوحة كان ثمة طائر ضخم فتح جناحيه للأسفل هدباً حائراً بين التحليق والهبوط، وفي أسفل اللوحة اندفع الماء بغزارة.

هذه اللوحة تستأثر به فيمضي معظم الوقت أمامها متخشباً صامتاً خاشعاً لا يبرح مكانه حتى تغور عيناه فيغطي وجهه بكلتا يديه ويركض صوب سريره الرث يجتر الدخان والتأوهات

في خارج هذه الغرفة الرخوة الرطبة كانت السماء تتهيأ لأن تسكب ماء مدراراً حيث بدت بروق صغيرة تلمع في الأفق وتشحذ أسنتها في البعيد حتى إذا تهاوت الرعود من عليائها، استجابت لندائها بخطوات حثيثة مكنتها من الوقوف على رأس المدينة وقرعتها برعد تصدعت له الأرض.

على صوت الرعد الصاخب انزلقت عيناه من على تلك اللوحة وجحظتا بفزع، وتموجت بجسده ارتعاشة قوية، فتدثر بغطائه الشوكي وقضم عروقه بجزع مستجمعاً أنفاسه اللاهثة في محاولة لكبح هذا الفزع الطارئ، بينما كان يحاول ابتلاع ريقه الناشف بصعوبة. ظل على هذا الوضع للحظات، حتى إذا أفرغ الرعد حمولته وبرقت غرفته بوميض خاطف لبرق تشظى على مفرق المدينة، عاد إليه هدوؤه قليلاً فأشعل سيجارة أخرى ووجه نفسه نافثاً الدخان باتجاه تلك النسمة المبللة ببرودة المطر ورائحته المندفعة من نافذته المطلة على الشارع.

كان رنين الهاتف المتواصل لا يزال يقرع أذنيه، ومن بين ارتعاشاته وخوفه نهض بتثاقل متلحفاً بغطائه الشوكي واتجه صوب المنضدة،

وقف بشكل عصبي جعلني لمحارج والريح الباردة تلفح وجهه فيزداد انكماشاً. ظهر الشارع مقفراً من المارة. قلة من الرجال تفاطروا فرادى وحرصوا عطاءهم بملابسهم الصوفية مادين خطاهم على عجل لتلتهمهم الأزقة المخبأة في جنبات الشارع الممتد.

وباد حصيف يتقطر على زجاج النافذة عيمد يده صوب سدث القطرات، يحس سجارته فيها فتتشقق المساء عن ثقوب واسعة سمع ماءها بجزارة. يرفع صدره عالياً وليجهش بالبكاء.

≈

إلى هنا والأحداث مقطوعة والزمن مفتوح

≈

الشارع بحيرة صغيرة يقطعه طارة بسرعة وعجلة غريبة. كان يسير خلف السمسار يحمل حقيبته وتمهمه تاركاً ضيقاً يعتصم من بين تلك الملامح للثنية ويصيح بالحمال بأمس.

- إياك أن يسقط أي شيء مما تحمل

كان السمسار يسير أمامه متودداً ومفسحاً له الطريق في دهليز معتم ينتهي بباب بنى عليه العنكبوت حول جدعها أن يشمله عنه، وأدار المفتاح فتهادى الباب بصرير مرعج يكشف عن سبب استقرت على جنباته فتحات حمام ومطبخ وصالة صغيرة وانتهى بغرفة انبعثت منها رائحة رخوة دبقة مقررة كأن ساكنيها غادروها من أمد طويل تناثرت أعقاب السجائر وملاءات الأسرة في أرضيتها

ولوحة لسفينة خارقة لم يتبق على متنها سوى عمود محترق على هيئة شخص يشير للأمام وسماء صافية إلا من طائر غريب سقط أسفل قامة امرأة انتصب في مقدمة اللوحة وبيدها حجر صدئ.

وكان ثمة مسمع التحف بغطاء شوكي - بجوار النافذة المطلة للشارع الخارجي - محت بشكل رائع لشخص كأن الموت الفاته لتو ظلت عيناه مفتوحة وحادة بصوتها صوب البعيد ويده مرفوعة وكأنها تحاول دفع كارثة أقبلت مباغتة.

كان المستأجر ينظر إلى محتويات الغرفة بازدراء وضحامة السمسار المترجرجة تشجعه ولسانه يسيل

- تأكد أن قليلاً من الترتيب سيحيلها إلى تحفة تفاخر بها زملاءك.

ويضجر رد عليه.

- أأنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!

***

في إحدى الصفحات الداخلية المهملة والتي يحكي فيها المسنون ذكريات سبقت من حناجرهم المكللة بآهات وحسرات تخصر قرأت ما رواه أحد أولئك المسنين أن في حيّهم عمارة لا تصل إليها الشمس وتظللها سحابة على مدار العام، وكنت أبحث عن تحقيق صحافي أكسب به رضى مدير التحرير الذي طالما نعتني بأنني لا أصلح لشيء سوى فبركة الأخبار السهلة التي تبثها الوكالات أو التي تصل عبر الهاتف

صدف قرأت تلك المقابلة والتي ينصر فيها المحرر تلك الحكاية في جملة مقتضبة (انبعاث أسطورة من داخل عمارة مهجورة) حدثتني نفسي أنني قادر على إنجاز سبق صحافي، وبعد اتصالات عديدة تعرفت إلى تلك العمارة وتوجهت مباشرة لإجراء هذا الاستطلاع.

لا أحد يعرف مصير نزيل الدور الأرضي من عمارة الشرقي وإن ظلت هناك كثير من أقاويل وأخبار يتناقلها الناس عن ذلك النزيل بشيء من القداسة، وقلة هم من يسخرون من حكاياته، ومهما يكن الأمر فإن معظم تلك الأقاويل كان يكتنفها غموض كثيف وليس من اليسير كشف الحجب التي تسربل بها.

يقولون

– صعد إلى السماء!!

هذا هو التفسير الجاهز لحادثة لم تستوعبها الذاكرة الشعبية لأبناء تلك الحارة المغروسة في مؤخرة المدينة والتي تحتفظ بعبات الأساطير والطلاسم، وتغدو الأساطير ذات إغراء لا يقاوم خصوصاً أنها تحمل المرء من عالم ساخر ومضني إلى عالم اللامعقول، عالم خصب، عالم تتحقق فيه كل المستحيلات. فالحياة أسطورة مقلوبة ومن نظر إليها بهذه الصورة تكشف كل الأسرار المغلقة، وأغلب الظن أن هذه الحادثة كانت بمثابة الخدر الذي يتسلل في الأوردة ويترك ضحاياه معلقين بين الحلم والنشوة.

لم أكن لأصدق تلك الحكايات التي انثالت على مسامعي أثناء إجراء هذا الاستطلاع وإنما كانت تدغدغ أفكار شتى

– لماذا تلجأ الذاكرة الشعبية لمنطق وتتعلق بالأسطورة؟!

ولماذا يتم فصل الواقع عن ظروفه في البيئات المختلفة؟!

وتبادرت إلى ذهني الروايات التاريخية وما تضيفه على أبطالها من قوى أسطورية ينقضها ما لدينا من منطق معرفي، وظل سؤال يحيرني

– ما مدى استخلاص الحقائق من كل هذا الكم الهائل من الحكايات؟!

هذا الاستطلاع يهدف في الأساس إلى الاقتراب من تلك الأسطورة التي نمت وتناقلتها الألسن بصور مختلفة ومتباينة

ولكي لا أغامر في تحقيق فاسد فكرت في أن أقطن تلك الشقة، ولأنني أخاف كثيراً فقد قمت باستئجار شخص يقطن تلك الشقة ويحدثني عن تجربته. لكن ذلك الشخص غاب ولم أره بتاتاً. ربما كان أحد ضحايا تلك الأسطورة التي يؤكدها أهل الحارة، ومحواها (لا يدخل أحد تلك الشقة ويعود)

في البدء قابل مدير التحرير حماستي بسخرية – ويصحح لي أستاذي محمد عاشي بسرد هذا على القراء – حين مددت إليه ورقة أطلب فيها مصوراً، فتح فمه لتظهر أسنانه المتسخة ذات البريق الذي طالما منعني خجلي من التحديق بها، وهش بطريقة مسرحية.

– ولنفرض تحركت! ماذا تود أن تقدم؟

– موضوعاً لن أبوح به.

– كل ما أخشاه تحقيق فكرتي عنك

– سترى موضوعاً يستحق أن يظهر إمكاناتي الصحافية

- أتمنى ذلك.

والحقيقة كان رؤوفاً بي وبحربي كثيراً، ولا يتبادر لأحد من القراء أن هذا مديح فأستاذي لا يكره شيئاً ككرهه للمديح

خرجت والحماسة تشتعل في أطرافي، كان علي أن أبحث عمّن يرشدني إلى مدخل تلك العمارة التي التفّت حول نفسها كامرأة أصابها العري فلم تجد سوى ذراعيها لتستتر بهما من العيون الشبقة المحدقة بها. كان دوراننا - أنا والمصور - حول تلك العمارة مثار الريبة من قبل أهل الحي، ولم نجد بداً من مطالبة المصور بإخراج كاميرته من حقيبته، وكما توقعت استطاعت الكاميرا أن تجذب الكثير صوبنا وجعلت الصبية يتحوطون من على بعد كعجول متوحشة، وكنت كلما التفت نحوهم وجدت أعدادهم تتزايد، وإشاراتهم التي يطلقونها تجمع كبار السن على التحديق في وجهينا وهم مستغربين في انتظارهم إلى أن يعربي الأطوار، وكلما هممت بمحادثة أحدهم تراجعوا وتقافزوا هاربين لتبتلعهم تلك الأزقة الملتوية

درنا - أنا والمصور - حول العمارة مراراً، وفي كل مرة نعجز عن تحديد المدخل، كان منظرنا لافتاً لأهل الحي الذين اكتفوا بالتحديق، وإن كنت أحس بهمساتهم ونظراتهم المريبة تخترق جمجمتي من خلفي

في المرة الأخيرة دفعوا شاباً نحونا يظهر من هيئته أنه المتعلم الذي يقدمونه في مثل هذه الحالات. اقترب منا بحذر وبادرنا بسؤال مرتبك:

- هل باستطاعتي أن أقدم لكما يد العون؟!

فوجدتها فرصة سانحة لأن أتودد إليه
- مرحباً. هل أنت من أبناء هذا الحي؟!

التفت إلى من كان يراقبه، وهز رأسه بالإيجاب، فاقتربت منه وأطلقت ابتسامتي.
- نحن صحفيان.

لمعت عيناه، وبدون شعور امتدت يده إلى هندامه لإصلاحه، وازداد ارتباكه فقال متلعثماً
- تكتبون بالجرائد!!

هززت له رأسي مؤكداً.
- ونحن بحاجة إلى العون في استكمال استطلاع
- حارتنا ينقصها الشيء الكثير وهي في حاجة إلى مثل هذا الاستطلاع. هل تودان أن تصورا البيارات الطافحة أم أسلاك الكهرباء العارية، أم أكوام القمامة أم.. ؟

وقبل أن يكمل سرد شكواه، تداخلت معه
- لا، لا. استطلاعنا ينحصر في موضوع آخر.
- أي موضوع؟
- نزيل الدور الأرضي من عمارة الشرقي.

ارتبك قليلاً وأمعن النظر للخلف ثم أردف
- سأساعدكما بشرط أن أرى صورتي بالجريدة

فأوعزت للمصور بأن يأخذ له صورة، وعندما رأى وميض الفلاش

صاح بي مرافقوه:

- إنهما صحافيان وليس كما ظننتما.

فانطلق صوبنا مجموعة من الرجال والصبيان بينما وقف عندنا رجل مسن يحدق فينا باحتقار ويحدث بامتعاض من التف حوله:

- لم يوجد الله أكذب من هؤلاء الصحافيين يكتبون الباطل حقاً!!

فلم يلتفت إليه أحد حيث كان المجتمعون يتربصون في أي اتجاه ينطلق وميض الفلاش فيتجمعون كقطط تركض خلف حبل متحرك وما أن بدأت بسرد أسئلتنا حتى انفتحت شهية كل منهم للحديث، وكان أول المتحدثين بواب العمارة (رجل يميل إلى البدانة قصير دقيق الملامح).

بدأ حديثه مضحكاً بعض الشيء، تنحنح ومسح زبد شدقه بالإبهام والسبابة:

- يقولون إنه يملك خاتم سليمان!!

بهذه الجملة الافتتاحية بدأ حارس العمارة حديثه، فشجعته على المضي في سرد ما سمع فقال:

- لقد مضى علي زمن طويل وأنا أحرس هذه العمارة، وقد سمعت العجب عن ساكن الدور الأول، وقد تناقل حراس العمارة حكايات كثيرة عن هذا النزيل إلا أن أحداً لم يجزم بما سمع وإن جاءت معظم الروايات نقلاً عن الحارس الذي عاصره إذ روى

- لم أر في حياتي رجلاً أغرب منه، فلم يكن يغادر منزله إلا لماماً، وغالباً ما يقف خلف النافذة محتمياً بستائرها الشفافة فيبدو من الخارج كشماعة الملابس. ولم أكن لأتجرأ على طرق شقته، فبعد أن فعلت ذلك في إحدى المرات أقسمت أن لا أعيد الكرة مهما حدث. كنت مكلفاً من قبل صاحب العمارة بجمع الإيجار الشهري من سكان العمارة وكان الجميع يبادر بدفع الإيجار قبل أن أطرق عليهم الباب إلا نزيل الدور الأول، فقد كنت أفاجأ به في أوقات النوم يقف على رأسي ملقياً رزمة من الأوراق النقدية تفوق سداد الإيجار ولا يلتفت لملاحظتي عن تلك الزيادة، وفي أحيان أسمعه كالهمس يقول:
- ما تبقى حلال لك.

كنت دائماً أقف في منطقة متأرجحة من الوعي فلا أعرف هل أنا في حلم أم في واقع؟ وفي أواخر أحد الأشهر تباطأ عن السداد فبادرته بطرق بابه، فظللت أطرق الباب لوقت طويل، وعندما هممت وهممت بالعودة سمعت صوتاً ثقيلاً يأمرني بالدخول فدفعت الباب ودخلت، كنت أسمع الصوت من غير أن أرى محدثي، وفجأة رأيت أوراقاً مالية تتحرك في الهواء فوقفت متخشباً ولم أدر إلا ويد تنحشر بداخل جيبي وتضع النقود وبنفس نبرة ذلك الصوت الثقيل سمعت.

- إياك أن تسألني عن شيء قبل الأوان!!

وأحسست بيد تدفعني للخارج ومنذ ذلك العهد وهذه الشقة كما هي عليه.

صمت الحارس صمتاً ثقيلاً، ثم وكمن ينتزع نفسه من عالم مليء بالأطلال، تابع

- . . . الآن لا أحد يسكنها وكلما نزل بها أحد غادرها قبل أن يكمل يومه الثالث.

يقولون إن هذه الشقة مسكونة وإن الذي يسكنها مسك الجان بعينه!!

وفي مكان آخر من الحي حدثنا يوسف مبارك - نجار يقطن دوره هذا الحي من عهد الأشراف وقد سحب وجهه تحت كبوابة قديمة حافظت على عمامته رغم ركض السنوات الطوال - قال

- في الحقيقة نزيل هذا الدور رجل مبارك وقد سمعت أبي يروي عن جده أنه سمع أناساً يقولون
- لقد صعد إلى السماء!!

حيث يروى أن ذلك النزيل بينما كان يحاول إغلاق نوافذ بيته خوفاً من تدفق الصواعق التي ضربت المدينة شوهد يخرج في دفء الجو الماطر لملء رئته بسحاب البرد فطرقت السماء بصاعقة ملوية انشقت عن طائر غريب له لون الشهب خاطفه حط عليه وأنشب مخالبه بملابسه، وحلق بجناحيه عالياً حتى غاب بين السحب

وتحدث إبراهيم البنا - مقطن أسرته بهذا الحي منذ عام ١٣٧١ للهجرة - قال سمعت جدي لأبي في طفولتي يقول

- لقد خسفت به الأرض!!

ويروى أنه ظل طوال حياته عازفاً عن النساء وظن كثيرون أنه عاجز

لا يقدر على إشباع شبق نساء هذا الرس، وظل هذا الاعتقاد سائداً بين رجال الحي حتى أن أحدهم إذا رأى زوجته تجالسه وتكسط معه ثم تبعده مياه الحيرة. وكان مولعاً بتربية الإناث من حمير فكانت له زريبة تجاور حوش المدني من جهة الغرب اتخذها إسطبلاً يربي بها تلك الإناث، وفي ذات يوم أقسم أحد الرجال التفت أنه رآه يأتي إناث الحمير بشبق! فلم يصدقه أحد فجمعهم وسار بهم إلى الحوش، وظلوا يتربصون به حتى أتى إسطبلها كما يأتي الرجل أنثاه فرفع أحدهم يده داعياً عليه، وما هي إلا لحظات حتى غارت الأرض وأخرجت روائحها وكانوا يلمحونه وهو يدور بوسط تلك الروائح حتى غارت به الأرض. ولاتزال هوة كبيرة تتوسط ذلك الحوش الذي خسف فيه.

وقد وقفنا على تلك الهوة والتقطنا صوراً لها ويطلق عليها (بير العذاب)، وقد رجعت لكتب التاريخ ووثائق البلدية فلم أعثر لها على ذكر. وربما ما ذكره يرفعه البار دخل إلى ذاكرته من خلال التاريخ الشفوي الذي تختص به المجتمعات الهامشية بحيث تصنع لها تاريخاً موازياً للتاريخ الرسمي، ومشكلة هذا التاريخ أنه ينتهي بعد زمن قصير لأسباب عديدة قد يكون أهمها وفاة أصحاب ذلك التاريخ أو رواته، فهو تاريخ مدون في الصدور وإن ظل باقياً فإنه تتناقله بزوائد عديدة تتعدد بتعدد رواته وتنتقل من كونها تاريخاً إلى كونها حكايات سرد لتزجية الوقت، ويتم ذلك في ظل غياب توثيق التاريخ الشفهي.

وروى منصور الفرحي عن أبيه
ـ لقد حلق في السماء كطائر بري.


وقال رجل رفض ذكر اسمه:

ـ لقد اختطفته الجن.

بينما روى أحد كبار السن أن الرجل أحرق بالكهرباء لأنه حاول أن يطال من أحد الشخصيات المهمة

وقال أحد أولئك الصحفيين للبيع ويدعى صالح المزروع ـ كان يعمل بالعسس، وبعد تقاعده لم يجد مكاناً يجلس فيه فواصل السير في الأزقة والمنحنيات ـ

في ليلة من الليالي المدلهمة، رأيت رجالاً يحملون برميلاً ويصعدون للمسارق وبعد صعودهم بقليل سمعت صرخة أندب لها الظلمة وجهها ـ وجبنت عن تلبية استغاثته. وبعد أن رأيت الجناة يغادرون المكان مسرعين لأجد برميل الدور الأول قد ألبس درعاً نحاسياً ساخناً، وجمد به كل شيء وقبل أن أستبين ما حدث، كان أحد أولئك الجناة قد عاد وعندما تخفي ألصق بجوار تلك الجثة المصبوبة، ثم تراجع بل أقبل علي محذراً:

ـ هذا رجل نال جزاءه وإياك أن تفتح فمك كي لا تجاوره

لقد مضت سنوات على تلك الحادثة، وأسردها الآن لأنه لم يعد بالعمر بقية، فليأت أولئك الجناة لنزع روحي التي أحب الخروج بالرغم من هذه الحياة الضنكى، والتي لم تعد قادرة على مدّي بقليل من هوائها، فها أنا أجاهد من أجل الحصول على قليل من الهواء يمر في هذا الرصيف المتهالك.

إزاء هذا القول أردت أن أستوثق من الشرطة بالبحث في سجلاتهم

عن حادث من هذا النوع تم تدوينه في الفترة التي حددها الراوي، لكن محاولتي تعثرت، وتلقيت توبيخاً من أحد الضباط، كاد يفضي إلى إدخالي غرفة التوقيف ـ أجهل اسم الضابط والمركز الذي يعمل به من فرط إنصافي، فأنا أولاً وأخيراً صحافي تؤدي دوراً توعوياً في المجتمع كما يؤدي هو دوره الأمني بالضبط ـ.

مع تلك الروايات المتداخلة، والمتناقضة طرأت على البال فكرة ألحت على كل تفكيري، كانت تتعزز كلما تذكرت أن علي أن لا أغامر في تقديم تحقيق فاسد. كانت الفكرة أن أقطن تلك الشقة، وخشيت أن يعرفني أهل الحارة ـ بعد رؤيتي بالأمس ـ فقد تنكرت في هيئة شيخ طاعن في السن وحملت معي بعض الحاجات البسيطة وانتقلت إلى الداخل تلك الشقة مبدياً عدم الرضى عنها على مسامع السمسار الذي كان يطلق ابتسامته، ولسانه يسيل تحفزاً:

ـ تأكد أن قليلاً من الترتيب سيحيلها إلى تحفة تفاخر بها زملاءك.

كنت أنظر إلى محتويات الشقة بازدراء، ورددت عليه ضجراً:

ـ أأنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!

رد مؤكداً:

ـ ستجد كل الراحة بداخلها، فهي تطل على الشارع وتعتبر إيجارها زهيداً ولها مميزات ستكتشفها عندما تسكنها.

كنت راغباً في الوقوف على كل التفاصيل علّني أجد شيئاً يهديني

في تقديم هذا التحقيق قبضت العرض، وخرج السمسار فرحاً ـ كنت متيقناً أنه كان يستغفلني في داخله، وربما خامره شعور الظفر لأنه استطاع تأجير هذه الشقة المهملة من سنين طويلة ـ

مكثت بها بمفردي.

**الليلة الأولى:**
أصبحت أتفقد تلك الشقة:

دهليز معتم ينتهي بباب دي لون باهت معيش على رؤيته أسجد عناكب وأرضية نخرت طلاءه

وجدت نفسي محاصراً برائحة دمية، وذلك التمثال يقترب من الحركة إلا أنه صب بنحاس ذكي، شيء ما يحرضك أن تتأكد أنه تمثال وليس كائناً تصلبت مفاصله وبقي على هذه الهيئة وكانت هناك ورقة صغيرة مثبتة على الحائط كتب عليها مواعيد بريدة الدكتور وعلى أطرافها كلمات متناثرة (ما هو الحب؟ الالتزام ـ البحث عن الخلاص ـ مسدس ـ صباح ـ الموعد المحدد ١ ـ ١ ـ ١٤٠٠ ـ وصيه ـ) كلمات ليس بينها رابط وقد سقط بعضها من على الورقة وتمدد فوق الحائط ذي اللون الباهت.

هب اخترت أن يكون قبري، لا أحد يصدق حجم الكارثة التي عشتها، ولن يجرؤ أحد على الحديث عنها، أمران تقاسماني حبيبتي ووطني، وكل منهما أسلمني لهذا المصير هل أن محتاج للتوضيح؟ أنا سأموت الآن بعد أن خرجت هذه الليلة، سوف أحسب

على جسدي رصاصاً دافئاً وسأظل كتمثال يكشف عورة الواقع ربما يأتي أحد في الزمن القادم لينبش سيرتي ويعرف المأساة عن كثير من العته. هذا لا أقول الكارثة التي عشتها ملامح منذ مهدها؟ وهذه مشكلة أخرى، فأنا نمشي على أناس صاروا أحياء، أخشى عليهم من العطش. هل يكفي هذه الجملة؟

**الليلة الثانية:**

وقفت أمام تلك اللوحة، ومددت يدي. كان اللون الأحمر ينز، وكم كانت مفاجأتي صحيحة! لقد كان دماً راعفاً، أصابني الرعشة والذهول، وشعرت بفؤادي يهوي إلى الأسفل، وأنا أتلمس طراوة ذلك الدم. وقبل أن أفيق كان صوت ثقيل يتردد في جنبات الغرفة

– ما الذي جاء بك؟

لم ينتظرني صاحب الصوت كي أجيب بل أحسست بيد تلامس كتفي وتهزني:

– سوف أتركك لتكتب ما شاهدت بيدك والدليل.

أحسست بيد تجذب جسدي تجاه ذلك الصنم ذي الرداء الشوكي وكلمات تردد بحنق.

– لقد قتلوني، سوف تجد الدليل هنا

سمعت خطوات سريعة تغادر المكان وأطفئت الأنوار، وسمعت خرير ماء يتدفق بغزارة حتى خيل لي أن طوفاناً سيهلك المدينة . أحسست بالمياه تحاصرني من كل جانب، وكلما حاولت رفع صوتي بالاستغاثة محمومة تحجر صوتي داخل حنجرتي فأجدني

بيدي بكل قوتي، ومن بعيد أرى المياه تغمر المدينة وتجرفها نحو البحر من غير أن يرتفع أي صوت باستثنائه، كل شيء يتحرك صوب البحر بصمت واستسلام وعاد الصوت ثقيلاً متوعداً:

– بلّغ عني... سوف أبي هكذا

والتفّت يد حول عنقي لتجذبني من وسط تلك الأمواج العاتية، وهبت عما حولي لأستيقظ في الصباح وأعتّ أنني كنت أحلم. وقبل أن يستقر هذا اليقين كانت ملابسي المبللة تعكّر ذلك الاطمئنان، وبقع من المياه تجمعت في زوايا الشقة، فأيقنت أن سحباً من سحابين المياه قد حج في غفلة مني. وقبل أن أتمكن من طمأنة نفسي بالدوران على تلك الخابي كان الصوت الثقيل يجوب أرجاء المكان:

– أوتم توقف بتقدمي؟ أخبر عني أخبر أولئك العاقين
أنني سوف آتي كما رأيت.

خرجت راكضاً بينما كانت الحارة غارقة في نومها وآتوتر لأرقه تجاهد بسالة في دفع ليل عطل بكتائبه.

## ملاحظات على التحقيق

الزميل يوسف الغالب

تحية وبعد

هذا التحقيق لا يصلح للنشر للأسباب التالية

١ هل نظر محسك بكتب سيدرو أعلام الكرمول الخاصه

بالأطفال حتى تتصور أن القراء سوف يصبون على قراءة تحقيق (لا أعرف أي وصف أطلقه عليه لكنه كما قلت أنت تحقيق فاسد)؟

٢ هناك فجوات في التحقيق وإسهاب في المقدمة التي لا نفهم البته ولم أقرأ في حياتي - وأنت تعرف عمق تجربتي - تحقيقاً صحافياً يبدأ بهذه الكيفية. والعارف لأدنى مبادئ الصحافة لا يبدأ تحقيقاً صحافياً بالكيفية التي بدأت بها، أو يكتب كلاماً كالذي كتبته.

٣ اللغة المستخدمة ليست لها علاقة بلغة الصحافة أو الأدب أو أي حقل من حقول المعرفة.

٤ ماذا يعني القراء من شخص غاب عن بيته في زمن من الأزمان؟ لتأتي حضرتك وتضفي عليه من القدسية والصعاب التي تبالغ بها حتماً يصل لأن يمكننا من وصم كاتبها بالجنون أو العته

٥ هناك تفاوت مهول في التواريخ بين حضور الرجل ومن يحتفلون معه.

٦ فبدلاً التي تم تخرج عن ذكرى وكأنك تكتب في الموضوع ونشر في صحيفة محلية كان يجب عليك مراعاة القيم والمثل التي ينطلق منها مجتمعنا. فمجتمعنا المثالي لن يذكر محتفلات مثل هذه الكتابات السخيفة والمبتذلة والمشوهة.

٧ وسعيك لإشاعة خرافات وخزعبلات تتنافى مع قيمنا ومبادئنا

وتتنافى أيضاً مع توجهات البلد وروح المواطنة الصادقة لديك. فأنا أحذرك من مغبة الانسياق خلف هذه الترهات، والاستخفاف بمهنتي بعملية النقر دسك الاستخفاف الذي بدا جلياً من خلال ما نطلق عليه عملاً صحفياً خارقاً.

٨ تمتلك الفاصم والذي حاولت فيه استجلاب عواطفي معك مع معرفتك الأكيدة أن مثل هذه الجمل التي ذكرتها لن تنشر وإنما حاولت أن تمررها عبري وكأنك ستخر في داخلك مني، وهذا الشعور يدل على خبثك وحقداً محضك وأن بك نفساً رخيصة مبتذلة لا ترى أبعد من ذاتها التي تحاول دائماً تضخيمها مقابل إنقاص قدر الناس.

٩ من تظن نفسك؟ أنت مجرد محرر صحافي لا تزل في أولى درجات سلم الصحافة، وأظنك لن تصعد على أول عتباته لأنك لا تمتلك أي موهبة. أقول هذا القول لأنك كتبت في بداية التحقيق (كتب يوسف الغالبي) هذه البداية لا يكتبها إلا رئيس التحرير أو نوابه أو كاتب جهبذ له عمر طويل في دروب الصحافة، أما أنت فتظن مصدراً بكرة، معصلاً عليك يمكن كتابه اسمك على الأخبار السقيمة التي تأتي بها من خلال الهاتف أو حركة أخبار الوكالات.

١٠ أنت لا تصلح لأن تكون صحافياً أو أي شيء آخر. وصيتي لك أن تقدم استقالتك.

١١ صحيفتك محترمة منذ أن انطلقت في ميادين الإعلام بالابتعاد عن كل الانحرافات التي يشيعها مرضى النفوس والعقول،

ولن تجرها بمثل هذا التحقيق الصحفي إلى مزالق حرجة ومشبوهة.

هذا للعلم..

**ملاحظة أخيرة:**

إياك ثم إياك أن تلجأ لمحاولة تمرير هذا (التخريف) عبر رئيس التحرير، ولا احتاج لأن أذكرك أنك بمثل هذا التصرف تتعدى على صلاحيات رؤسائك

مدير التحرير

محمد العائش

٢ - ٥ - ١٤٠١

**تنويه:**

**لا أزال أحتفظ بهذا التحقيق من غير أن أتمكن من نشره منذ عشرين عاماً.**

**يوسف**



٥

# الأوغاد يضحكون

يتسلل ضوء القمر عبر منفذ صغير استقر في أعلى العنبر، وحين تحدق بالظلام لا ترى إلا أجساداً مقذوفة في أحلامها البائسة بعمق وملل.

الليل منفذ واسع للهروب من تلك الآهات التي تثقب الصدور، كان الحيشة ـ وهو أقدم سجين ـ يردد

ـ إذا كثرت أحزانك، نم.

فأصبحت مقولته قاعدة يستتر بها من رحاب أحزانه الكئيبة، فما أن يهبط الليل حتى يتسابق إلى مخادعه ليجترّ ذكرى قديمة أو حلماً يمر من البال بالتصابي.

منذ ليال مضت لم نعد نسعد بالنوم، فما أن نطبق جفوننا حتى

يتعالى صوت دمدمة وقرع طبول وروائح لقش محترق، وفي أحيان كثيرة رائحة شياط ذبيحة تشوى على جلبة أصوات بدمدم بهمهمة وأقدام تضرب الأرض بتوتر، ولم يكن أحد ليجرؤ على فتح عينيه بعد أن فقئت عين البوري بحربة انطلقت من الظلام لتفجر محاجره وتترك له حفرة غائرة وجفناً مطبقاً، فيما بعد أقسم أن ثمة جن يسكنون هذا العنبر، وروى أنه رأى جماعة من الزنوج تدور حول نار ملتهبة رافعة حرابها ومحركيها دكّ الأرض بغضب نافر من سحنتهم المتشابهة، وحين رأوا عينه المحدقة بهم أطلق أحدهم حربته باتجاهه.. وبعد أن أفاق من ذهاب ضوء عينه أصبح لا ينام، يقول بعض من تتبع أخباره أنه أدخل مستشفى المجانين، وأنه يجالس أقرانه يومياً ويحكي لهم سبب انطفاء ضوء عينه اليسرى. فما أن يأتي الليل حتى يصاب بهياج وسعار ويظل يقفز من مكان إلى آخر صائحاً:

- الجن ينتظرون نومي حتى يزهقوا روحي

وشاع خبره في بقية العنابر وأصبح المساجين يطلقون على عنبرنا (عنبر الجن) وحين وصل الخبر إلى مأمور السجن سخر من عقولنا السقيمة - على حد زعمه - وعزل البوري من عنبرنا بعد أن أشبعه ركلاً في محاولة لمعرفة من فقأ عينه، وكلما ركله أكد له تلك الواقعة التي روعت زملائه - حتى ملوا من كثرة ترديدها - فيزداد المأمور سخطاً وتنكيلاً به، ولم يتوقف عن إيذائه إلا حين نقلت إليه عيونه أن ثمة أصواتاً تخرج ليلاً من ذلك العنبر ولا يعرف مصدرها بالتحديد، عندها أصدر أمراً لبعض حرسه بالتلصص بين المساجين خفية والقبض على العابثين الذين يقومون بإصدار تلك الجلبة ليلاً، لكن المراقبة لم تثمر شيئاً وظلت الأصوات تواصل جولتها الليلية

في تلك الأيام أصبح الجن وحشاً ضارياً لا نستطيع دفع خوفنا منه

إلا بإخلاص عجوب والإنصات لتلك الأصوات حتى مطلع الفجر وما
أن نخمد حتى نسرق قليلاً من النوم قبل أن توقظنا أحذية العسكر

في إحدى تلك الليالي تجاسرت وفتحت عيني، كان العنبر غارقاً في
الظلمة، فأخذت أنقل بصري بحذر وهدأة من عنبر لو أعثر على
شيء، وقبل أن أطبقهما لمحت عود ثقاب يشتعل في ركن قصي من
العنبر، أعقبت روحه تتمدد في كومة قش فبعثت الدخان ونار
متكاسلة هبت نفثه مع قرع طبل هيج سيمفونية ذابلة في ذلك أرجعة
العنبر. ورأيت شربوكه يقف منتصباً رافعاً يده بحربة ذات نصل
دقيق ويدور صوبها الأرض بقدميه جوبر واشتعال راقصين، بينما كان
صوت الطبل يعلو على صيحاته متهيجة فتستجيب بها صيحات
حادة متوحشة أقرب لعواء يأتي من أماكن قصية أشبه مهيبة تلك
الصيحة، تجر بغالها ومواشيها. والتفوا حول النار المستعرة يضربون
صدورهم بأياد خشب في دم ر من عجيل نحر للتو وخزقوه بحربة
جرت في فمه ولم تطق أن تعيب في أحشائه طويلاً فظهرت من
دبره! وحملوه ليستعر على ودمي نصبا بشكل متوازٍ بينما كان
رجلان يمسكان بطرفي الخازوق ويقلبان العجل تمهيداً على نار
أضرمت من وقت مبكر.

لمحت شربوكه يرقص في دائرة يحف به رجال سود كالليل،
يحتزمون بشعر ويتسلحون بأدوات بدائية وأيديهم تمسك بحراب
مدببة يرفعونها بين لحظة وأخرى على رؤوسهم وإذا أنزلوها حاكوا
بها صدورهم كمن يستعد للقذف مطلقين صيحات الظفر. بينما
كان شربوكه يتراقص فتهتز كل مفاصل جسده وفق فرقعات طبل
تكفل بقرعه أحدهم، فكان المكلف بضرب الطبل يصدر نغمات
ثقيلة حيناً وسريعة في أحيان أخرى فتستجيب لها جسد شربوكه

بعنفاً وتدفقاً ويهدر كموجة تنثني على نفسها وينطلق نحو النار خامشاً من جمراتها ونافراً إياها فوق رؤوس المحيطين به فينكبون أسفل قامته سجداً بينما يقفز عالياً ضارباً الهواء بسنان حربته ويصيح بحنق

– من سيين جستو لا بك من حز خج[*]

في إحدى قفزاته بلاقف أعيب فأشار بي باعتصاص عيني، وعندما لم أستجب لإشارته رأيت رجلاً ـ حجري الملامح ـ من خلف ظهره يستعد لقذف حربته باتجاهي فاعتراني الخوف وأغمضت عيني على عجل وتلمست بطانتي وأخذت أستعيذ بالله وأجاهد نفسي لتتعب عن خوفها، وكلما حاولت الانغماس في النوم تعالت صيحات أقرب للعواء ودمدمة ثقيلة رهيبة فاحت على إثرها رائحة شواء بعجل بر سمته على نار مستعرة . ومن بعيد بعيد جداً تأتي أصوات متداخلة تمضغ الكلمات بلكنة عربية وإن كانت منضغمة يشق انسيابها صوت شربوكه حاداً مزمجراً

– من سيين جستو لا بك من حز خج

يختلط صوته حيناً بأصوات متهيجة وثغاء أغنام وخوار ثور وربما شخير إنسان مرقت على نحره شفرة حادة بعد حدأت الجلبة وعم السكون بلمس شيئاً فشيئاً وغرق في العتمة والصمت

في الصباح اقترب مني شربوكه وهمس

– إياك أن يعلم أحد بي رأيت ليلة البارحة وحين همست بملاحقته بالأسئلة كز على أسنانه

---

(*) أنا خارج الزمن أيها الأوغاد

– يكفي ما رأيت... وتذكر أن ثرثرتك تقابلها حياتك

وعندما لم أعد أعتدي عليه أصبح أكثر وداً معي.

*

السجن يضيق حتى يصبح صدراً إضافياً يخفق بدواخله القصب بتوتر، وتغدو الحياة أنفاساً رتيبة مملة تقطعها بكلمات عبثة سير سير ملطخة هرمة. كان مقرراً علينا أن نقضي زمناً طويلاً داخل هذا العنبر، فعدد سنوات جرائمنا، وصنفت ضمن الجرائم الخطرة والتي توجب السجن لسنوات طوال، هنا يصبح الزمن وجوه أناس نتأملها ونقرأ تفاصيل ماضٍ موغل في البؤس وغدٍ مصمت لا يبين. تتغير صورة تلك الوجوه من غير أدنى اكتراث ويصبح الغد وجوه أولئك الذين يدخلون أو يخرجون من هذا العنبر، ويكون زمناً خصباً حين يهل علينا نزلاء جدد نتعرف من خلالهم إلى ما يحدث خارج هذه الزنازين التي نمت من أنفاسنا وروائحنا، ليس هذا فحسب فمع معظمهم نحصل على الدخان وبعض الحاجيات البسيطة التي تعتبر داخل السجن كنوزاً تميز بعضنا بعضاً كقنينة أو قطعة صابون أو منشفة أو سروال، أو (كشفية). ولمقدم هؤلاء النزلاء - الجدد - فرحة تسري بيننا وتنبض من تلك الوجوه القاتمة حيث كنا نسعد بجهلهم باحتلال الأماكن التي يتم إخلاؤها من تلك الأجساد الدبقة التي تغادرنا بالإفراج أو القصاص، ونقوم ببيع الأماكن الشاغرة للقادمين، وبالتالي يتيسر لنا بعض المال نستطيع من خلاله أن نشتري بعض الأمور التي نحتاج إليها. فبالرغم من اشتغال معظمنا بأعمال مختلفة في داخل السجن، إلا أننا نضيع ما نحصل عليه وراء إشباع نزوات

حمقاء سرعان ما تتلاشى في عتمة الليل خلف ظهر مقهى الانبطاح وتحمل أيادي الشتة على كتفه بشبق.

شيء قدر أن تمضي ولفتت مطارح فاتت؟ بعض النزلاء الذين أدمنوا العودة وجعلوا تجارة رابحة تدر عليهم المال الوفير الذي بين أيدينا، وقد بدأت هذه التجارة بجلب صورة بيضة عبيد، كان يجاورها بلبنة واحدة خمسة ريالات والساعة بريال واحد، ولكون الأمور تحقق مبكراً فقد كان البائع مضطراً بجلب شموع يتم تهريبها وإلصاقها بأعلى حائطه ـ بعد إذابتها ـ ولكي يستأجر الصورة عليك أن تستأجر معها قطعة شمع وتتدبر كيف تشعلها بعد أن يطفئ الحرس أنوار العنبر، وبعد دخول صورة بيلة أصبح الداخلون أكثر تفنناً في جلب الصور الأكثر إثارة وإشباعاً للنهم الذي نعيشه.

أصبح العنبر شبقاً لدرجة أننا أوكلنا أحدنا بمقابلة للأمور نرجوه أن يزيد نسبة الكافور في ما نأكله ونشربه، إلا أن شبقنا تجاوز الحدود ولم تفلح معه زيادة الكافور وقد انتهى بعض الانبطاح ليحصد المال بهذه المهنة القذرة.

لم يكن مقدراً لمجموعة كبيرة أن تغادر هذا العنبر في وقت مبكر، بدت كأنها تحسب كيف يمكن لنا أن نقضي أياماً من عمر أن نتطلع إلى الغد، وإن عشنا عمراً أن نصبح كثيراً من الأحلام الصغيرة والكبيرة في انتظار أن يأتي ذلك اليوم البعيد.

كان يجاورني أحد الأفارقة ـ ويدعى شرموكه ـ والذي كان مشغولاً بالتخطيط على أرضية العنبر ورسم أشكال بديعة، ولم

أكتشف مقدرته الفذة في الرسم إلا في إحدى الأمسيات حين مد يده بورقة بانجماعي مندهشة لتلك الرسمة التي جسد فيها هيئتي ولحيته الطويل كنت أظن انه أصم أو أنه لا يفقه العربية لكنني اكتشفت أنه يتمتع بلسان عربي وروح حلوة متعطشة للحياة. وقد عرفت فيما بعد أنه اقتيد إلى السجن بتهمة مزاولة السحر

وحين همّ زملاء العنبر بهمسه أخذوا يتضاحكون ويلمزونه

- لو كان ساحراً لما استطاع أحد أن يقتاده إلى هذا المكان المعتم..

كان يسمع أحاديثهم ومكائدهم بشيء من الثقة تاركاً ابتسامته تسيل على شفتيه الغليظتين وعينيه الصغيرتين تتمعنان في تلك الوجوه المكدودة.

في إحدى الليالي سامرنا قال إنه قدم من خلف جبال تكوتا حيث السحر والجمال من قرية ما زالت تقبع خلف التاريخ، وفيها أناس لا يعرفون سوى الغابات وأغاني الأمطار ويقدسون الروح المحلقة في الفضاء.

ذات مساء وبينما نحن في نومنا سمعت همهمة وبكاء مكتوماً. كان هذا قبل فقدان البوري بصيصه البصري - تقلبت فرأيت شربوكه يجلس القرفصاء ضاماً يده إلى صدره، اقتربت منه

- ما الذي يبكيك؟

ولكن أمسك به وهو يسرق النفس ويسارع إلى مسح دمع عينيه، وشيء من التأتأة تمتم

- هذا شأن لا يعنيك.

هكذا رحت أتودد إليه حتى انبثت شفته دفئاً عبر كلمات قليلة حميمة
- اشتقت لقريتي وتلك الوجوه السمراء المزروعة في الأرض.

وضعت يدي على ظهره مهدهداً
- عليك أن تنسى لبعض الوقت حتى تنتهي مدتك

ضغط على رسغه بقوة فنفرت عروقه بتوتر وكز على أسنانه بغيظ
- إن عمي سيموت خلال سنة، ولو بقيت بلحة القرورة هنا فسأموت.

وانهار وحتلى محبسه لينهض بعض زملائنا محاولين تهدئته، مسح مخاطه بمانكه المتسخة وتطلع إلينا متفحصاً وجوهنا وقال بصوت واثق.
- سأخرجكم من هنا جميعاً.

فانطلقت ضحكاتنا، لكنه لم يمهلنا وقتاً طويلاً.

- أريد أن تحركوا لي هذا الجدار من أوله إلى آخره، وبعدها سنهرب جميعاً. فازداد ضحكنا، ولكنه كان أكثر احتداداً وتصميماً، ولم يقابل إلا بالاستهزاء ضحكت على مضض، وفاتحني بعد عدة أيام بأن أتقدم له بيد العون في امتلاك هذا الحائط فقبلت كلامه بشيء من العطف.

- أنت تعلم أن لكل سجين مساحة معينة في هذا العنبر ولن يتنازل لك أحد عن مساحته إلا بمقابل، فصمت وعدت إلى مكاني سارحاً، وفي اليوم التالي استطاع شراء كراسة عريضة بواسطة أحد العسكر المتعاطفين معه واشتهى رسم السجادات كان يبيع الرسمة بريالين ولم يمض عليه وقت طويل حتى أصبح يمتلك بعض المال دفعه لأقدم سجين في العنبر وحصل على مساحة ثلاثة أمتار من الحائط. كان ذلك السجين قد ورث مترين من زميلين، ثم تعهد القصص بهم وآل إليه المتر الثالث كهبة منحها إياه سجين أفرج عنه وأقسم أن لا يعود للسجن مهما كان الأمر. وبعد أن تمت تلك الأمتار الثلاثة بدأ يتوسع في الحصول على بقية الحائط

الآن أذكر أن دمدمة الليل التي تحدث في عنبرنا بدأت تظهر بعد أن استطاع امتلاك أول ثلاثة أمتار من جدار العنبر

صباح تلك الليلة التي رأيته فيها محفوفاً بالزروج جاءني وحذرني من مغبة أن يزل لساني بالإفصاح عما رأيت، وخوفاً من تحذيره فقد التزمت الصمت ولم أبح لزملائي بشيء مما حدث.

ذات صباح استيقظت فوجدناه يمسك بيديه صخرة غريبة الشكل شبهت حتى هيئة أقلام قال إنه جلبها معه من أدغال أفريقيا من شجرة (موبي ادبا وباب) أعرق أشجار أفريقيا والتي تقدسها مجموعة من القبائل القاطنة في أدغال الغابات لاستوائية حيث الشجرة التي قذف بها نهر الخلود فبقيت مثمرة منذ ملايين السنين ومن أكل ثمرها أو أصاب جزءاً منها امتلك سر الخلود

كان يتوقع أن تتدافع لمحو تلك الصحف وقد أبدى حذر بجسمها في حجره، وعندما رأى مؤخراتنا لا تتزحزح من مواقعها أعاد نشر عيدانه وتشذيبها وأخذ يمص أسنتها في محلول لونه كلون الدم كان يحمله بين ملابسه، ونهض في مواجهة ذلك الحائط وشرع في رسم هيكل لسفينة كبيرة.

التف النزلاء حوله مبهورين بإتقانه لرسمه العجيب - والغريب أن هذه الرسمة كانت تختفي من على الحائط عند دخول دورية التفتيش (وهذا ليس كذباً فقد كانت تشف ويبهت لونها فلا ترى) - وظل يوقف ليس بالقصير يرسم سفينته ويدخل عليها التعديلات المتتالية حتى إذا أتم رسمه صاح:

- الليلة سوف أرحل فمن يصحبني؟

فتضاحك الجميع، ليغدو صوته الثاقب يحطم قهقهاتهم ويخز مسامعهم كأداة ثقب مدربة على الجريان في الصخور الصلدة

- كفوا عن حماقاتكم ومن يُرد مرافقتي فليتحرك

تحشب معظمنا، ومع صرخته الثانية كنا نتبادل حائرين ونحن نتطلع إلى هيئته التي تحررت وغدت أقرب لهيئة نمر ضار يهم بالانقضاض على من يحاول التحرش به فانتدب لنظراته باستسلام، ولكي لا يفقد رئيس العنبر هيبته فقد اعتبرها نعبة يمكن أن تدخل السرور إلى قلوبنا، هذه الجملة التي تعلقت بها كرامتنا المهدورة أنقذت كبرياءنا أمام بعضنا البعض، وسرعان ما تحولت إلى نعبة حقاً ليدخلها نزلاء العنبر كترويح عن أنفسهم وتحرجهم من مللهم لبعض الوقت.

قام شربوكه موزعنا على هيكل السفينة المرسوم وأمرنا بالوقوف

أمام المكان المخصص لكل واحد منا، وطال وقوف متململ الكثيرون من وقفتهم وانسحبت مجموعة كبيرة بعد أن أظهر شربوكه اللين مع من تخاذل في وقفته، حيث كان من المقرر أن نقف من الأصيل الى السحر، وقد استمر شربوكه في مقدمة السفينة وهو يتطلع إليها بثقة وتحريض على الصبر، وكلما تلاشت قامتنا صاح:

– رحلتنا ليست في حاجة للمتخاذلين ومن لم يجد في نفسه الصبر فليغادر سفينتنا.

كنا نتهامس، ونتبادل الابتسام بلا مواربة من جملته نحن التي كان يرددها بين الحين والآخر، وتجرأ الهيصي بالإفصاح عن سخريته.

– ركبت في راس العبد يفكرنا راكبين سفينة بحق وحقيق، يا جماعة فكونا من نكوكته، يلعن أبوه على أبو السفينة.

فالتفت إليه بعين حارقة وبصق حامضه، وتمتم بنكتة مبقعة بالشنشنة جعلت من رآها يكتم ضحكته لا إرادياً، وإن بقينا نلعن استجابتنا له في داخلنا ونلوم بعضنا على هذا العبث الذي نحن فيه. وبعد مضي ساعة تراخت مفاصل الخشبة وشعر بالإرهاق فصاح:

– يا جماعة والله لم أقف في صلاة مثل كل هذا الوقت، ولن أقف لأحد.

وتحرك من مكانه وقذف بجسده على فراشه مبدياً الإعياء، فصاح به شربوكه.

- ستندم.

فرد عليه بخجل.

- لو ندمت لا تحاسبني الملة.

وبعده انسحب الهمني، رئيس العنبر ثم تناقصت مجموعة كبيرة، ولم يبق في مكانه إلا خمسة أشخاص كانوا يحلمون بالهروب من حد السيف.

ومع الغروب دخل إلى الحمام ودلق على رأسه الماء واغتسل جيداً ولبس ملابسه الشعبية وجلس منشرحاً بعد أن أمر من بقي معه بالذهاب للاغتسال وظلت ابتسامته تنير وجهه وهو يحرض من انسحب على انتهاز الفرصة، لكن أحداً ما لم يكترث به، حتى أنا الذي شهوتني اللعبة عند البدء تراجعت وسخرت مع الساخرين، فقال بحزم:

- ستندمون في الصباح.

وعندما استوثق من عدم إجابتنا لما يدعو إليه جمع من وافقه ووزعهم من جديد على هيكل السفينة المرسوم على الحائط وأمرهم بالصمت حتى يحين موعد الإبحار، فجلسوا في أماكنهم صامتين بينما تقدم هو لمقدمة السفينة وأخذ يتمتم بوقار ومثابرة. لم تخرجه سخريتنا عن تمتماته وخشوعه، كانوا كلهم كالخشب المسندة إلى الحائط، وعبثاً ذهب تبكيتنا وضحكنا، ولم يخرجوا عن صمتهم، فتركناهم على هيئتهم واتخذنا لأحوالنا

أخذ الليل يعبرنا ببطء ونحن نزاول حياتنا كالمعتاد في اللعب

والأحاديث، ولا التفات إلى أولئك المتحشرين في أماكنهم بصمت والتذمر عليهم وعندما لطمت الأمواج بنا ونحن متصاحبون على ركاب السفينة، ومع منتصف الليل سمعت هديراً عالياً ورذاذ ماء مالح يبلل أجسادنا وصفارة قوية تنبعث في هجعة الليل وثمة سفينة تشق العتمة في موج متلاطم

١٤١٦

كتبت خلال عام كامل ١٤١٥



٦

## ماذا قال القميري؟

الشوارع ممتوجة بالناس، والكل محدق بصره في السماء، والدهشة تكسو على الوجوه بطلاقة.. كان حدثاً مثيراً لا يمكن تصديقه، ولولا حدوثه أمام أعيننا لظننا أنه إحدى المقلبات الإعلامية التي بتلينا بها مؤخراً، وحتى أبعد احتمال أن يطير الزائر أو بالوناً كبيراً أطلق في الجو لتلهيه أبنائنا، خصوصاً أن إسماعيل أبو حمد قد توعد بإطلاق طائرة كبيرة يجهد له رباب الدين فيضعهم في الألعاب مستحدثة، لكن هذا الاحتمال مات فجأة حين تراكض عليه القوم وهم يسكبون اللوم على العمدة الذي صد شاله معلياً أثناء تراكض، وبقي بعرفة حذاء واحدة وجرهم عن مواصلة تفريحه

ـ قدر الله وما شاء فعل

خرجنا جميعاً نركض في الشوارع والأزقة، كانت ملأى بالناس،

بدأ الركض من حينها ثم تواصلت الأقدام وتوالدت الأزقة والشوارع والميادين. أناس لو قدر لرائيهم من عل رؤيتهم لجزم أن كارثة عظيمة حلّت بمدينته، حيث كان البشر يركضون إلى حدرجهم في اتجاهات مختلفة كخلايا النمل، ولم يكن ركضاً منتظماً فعطعطت العشوائية وتلاقفتنا الشوارع وقد خف أصواتنا كل يوصي الآخر بالركض في اتجاه مختلف وانبرى كثير منا للتشهد والاستغفار بعد أن صاح أحد الشيوخ

— والله إنها القيامة ولو لم تكن فهي قائمة لها

وسجد ولم ينهض، متمنياً أن يقبض على تلك الحالة، ولم تخرجه من سجوده تلك الأقدام المتراكضة والتي كان من الممكن أن تهرسه من غير أن تنتبه لسجوده.

وتحدث النساء عن أي ساتر يستر فتنتهن وقدودهن الممشوقة وتعرجن فرحات حانسات الأبصار والأفئدة، وفي حالتهن تلك لم يغرين الرجال بالنظر إليهن، أو استراق النظر لمخابئهن العميقة حيث كان كل واحد مشغولاً بهول ما يركه فقد قذفت العيون محدقة والأفواه تسيل بالاستغفار، ولم يكن أحد يمتلك وسيلة لإيقاف تدفق الفوضى التي دبت في حي، وقد استجابت النساء في بادئ الأمر لعويل أطفالهن فسحبن أعناقهن من الأبواب والنوافذ وعندما هالهن المشهد تراكضن معهم، لكن الأطفال استشعروا الخوف فأسرفوا في البكاء لتباغتهم أمهاتهم بالبكاء بعويل فاجع كان الجميع في حالة اندهاش، وانسكبت كثير من المقولات التي لم تجد من ينصت لها سامعها، وكان أكثرها ترديداً مقولة خميس

— والله هذه دعوة أبو عبدالله.

كنا جميعاً نركض ولا نعرف بالتحديد إلى أين، فقط كانت عيوننا

معلقة في السماء وبحث تابع علوه وكأنه طائرة ورقية انقطع خيطها فأخذت تبتعد وتتراقص في السماء وتركض للمدى البعيد

❊

نافذة أغلقت درفتاها، فبقيت شقوقها تفصح عما بداخلها، ألصق الصبية عيونهم بتلك الشقوق، وتدافعوا كل منهم يزجر الآخر ليخلي مكانه مفسحاً المجال للآخرين وإلقاء نظرة خاطفة إلى داخل تلك الغرفة ذات الإضاءة الشاحبة. كانت تلك المضحكات تحدث بصمت بينما العيون تتناقل النظرات بصخب، والأيدي تعبر عما يجيش بالصدور، مكتفين بجذب العضلات، أو التخبيط على ظهور المارقين في تأمل ذلك الجسد المتصبح.

ولم يكن ذلك الصمت المارق بين الصبية إلا وليد خوف من أن تسمعهم زوجة القصيري فتخرج لطاردتهم وإلقاء الحجارة على رؤوسهم أو يلحق الشتائم بهم ويرمي ولدهم على الأرض

كان المنظر مغرياً ببقاء العين ملتصقة بشقوق المرفقين الخشبيين والتي انطبقت منذ عشرة أيام.

تم اكتشاف تلك الحالة العجيبة بالصدفة المحضة

لم يكن القصيري يترك صبياً يلعب بجوار بيته إلا وعلقه من أذنيه، وأشبعه ضرباً، بذلك تعود الصبية على الابتعاد في لعبهم عن بيته، ولم يشجعهم على الاقتراب إلا غياب القصيري المتقطع حيث كان يغيب ثلاثة أو أربعة أيام ويعود من جديد صاخباً عاوياً ككلب عقور.

ولم يكن أهل الحي يعرفون سبباً لهذه الغيبات المفاجئة والتي كان يعود بعدها ممتلئ الوجه وقد بدت عليه السمنة وبز دهن وجنتيه تركاً وجهه كمقلاة دهنت أرضيتها بشحم مكثف، مما جعل أحد النائمين عنه يرد على مصحب عمدة الحي حين أبدى دهشة مطلقة

– والله القصيري سمن.

فرد عليه معقباً:

– الزبيب يا عمدة.

فزجره العمدة مستنكراً:

– يا رجل عافاك الله.

لم يكن أحد يعرف أين يختفي في تلك الأيام التي يغيب فيها لكنهم ألفوا هذه الغياب المتقطع، وأطلعوا في صبحهم عن ترديد

– ماذا قال القصيري اليوم؟

مع هذا الغياب تجاسر الصبية ومدوا رقعة لعبهم حتى توسط بيت القصيري ملعبهم، كانوا يعتقدون علم اليقين أن كرتهم إذا (سحبت) بيت القصيري لن تعود إلا أشلاء ممزقة، واتفقوا أن لا تعلو الكرة سور الجدار بأي حال من الأحوال

اليوم ارتفعت الكرة سور بيت القصيري واستقرت فوق سطحه، فتراكضوا هرباً، وظلوا ينتظرون كرتهم أن تقذف ممزقة، أو أن يخرج القصيري حاملاً عصاه ليطاردهم بين الأزقة ملوحة كعادته صائحاً بهم:

- يا أولاد الزنا . ألا تجدون مكاناً تلعبون فيه غير جوار بيتي؟

وعندما تباطأت سيدة الشتيمة في الخروج، وظل باب البيت موصداً، ولم يقذف بالكرة أو يخرج إليهم ليفسدوا بعصاه، واقترعوا أيهم يصعد إليها. كانت القرعة من نصيب ابن السمان، فتجاسر بعد أن قرأ المعوذات وسمع كمّاً هائلاً من تحذيرات أقرانه، ارتقى الجدار مستعيناً بأسياخ نافذة بيت القميري النافرة، وفي ارتقائه تخشّب ولم يكمل الصعود، فكان أقرانه يحضرونه على الصعود بتصفير مضاعف، تخالطه شتائم بذيئة.

- اصعد.

وتطاير سبابهم وهم يدحرجونه متمسكاً بأسياخ النافذة ويتطلع من شقوقها إلى داخل الغرفة. كان غائباً عن نصيحتهم بالتحديق والمعول وقد جحظت عيناه وفرّ الهلع منهما فسقط مصروعاً وولى هارباً يتبعه أقرانه راكضين، حتى إذا هدأ روعه أخبرهم بما شاهد فعادوا وغرسوا عيونهم عبر شقوق الدرفتين الخشبيتين التي انطبقت على بعضها منذ عشرة أيام مضت.

*

القميري شخصية محببة وطريفة تجر خلفها صفات مدونة، يصفه أهل الحي بصفات ذميمة كالخسة والنذالة وقلة المروءة والصفاقة، والدمامة ورغم صفاته الحقيرة المتعددة التي يتجول بها بين الناس، كان محط اهتمام الحي، فالجميع يتناقل مقولاته، ويروجونها وهم يلعنونه ضاحكين:

ـ لعنك الله يا قميري، من أين لك كل هذه البذاءة؟

لم يكن له صديق وإن أبدى الجميع حرصهم على صداقته والترحيب به خوفاً من لسانه المتطاول في سير الناس كخنجر قصاب يعرف كيف يجري بين العصب والعظم. كان لا يتورع عن قول ما يشاء وفي أي مكان بوجه صُلب لم يعرق يوماً فظل مهاباً من يخشى سلاطته وهادنه من كان يخشى على سيرته أن تصيبها ذبابة لسانه. وبمقدرة فذة يستطيع أن يتعمق في حياة من حوله ويعرف خباياها الدقيقة ويشرح في الشجرات الصغيرة والكبيرة، وقد أقسم أحد المسنين أنه من نسل إبليس وقد عَمّ على من حوله أصله لأنه يسير في ملابس البشر.

ولم يكن يمضي يوم إلا وأحدث شجاراً أو علق فضيحة بهامة أحد أبناء الحي. ولكثرة شجاره وسبابه، أصبح من عادة أهل الحي أن يتساءلوا كل صباح.

ـ ماذا قال القميري؟

أو:

ـ ماذا فعل القميري؟

ولشدة بذاءته فقد وصفه لبروكي

ـ لسانه قطع في بارة.

ولم تذهب هذه المقولة أدراج الرياح، فقد علم بها القميري، وكان له من السباب ما جعله يتمنى لو أن الأرض خسفت به قبل أن يسمع تلك الشتائم التي نالت عرضه وجعلته مضغة على ألسنة الحي

لم يسلم من لسان القصيري إلا العم عبده بائع الفول، فما أن يظهر في مجلس أو على قارعة طريق حتى يختفي القصيري من أمامه، صامتاً متمسحاً به بسان درب أقرب بالترحيب والمهادنة، وإن بقي في مكانه بش وهش في وجهه واستقبله مهللاً ومرحباً

- هلا بالعم عبده نور الحي وبركته.

ويبدأ بإطلاق الأيمان المشددة

- والله لو أن الأرض بها اثنان من أمثالك لسقتها بالمطر يومياً

فيرد عليه بجفوة:

- ولو أن بها اثنين من أمثالك لطرها بالحجارة كل دقيقة

فيكمش مبقياً على أساريره وجهه منفتحة.

ولم يكن أحد يعرف السر الذي يجعل مفاصل القصيري ترتعد عند رؤية عبده الفوال.

وفي إحدى الجلسات سئل العم عبده عن السبب فابتسم واكتفى بمقولته التي أصبحت مثلاً فيما بعد

- القصيري مثل الزنبرك، إن رفعت رجلك من عليه طار في وجهك.

كان طارئاً في كل شيء، ولا أحد يعرف بالتحديد من أين جاء، وإن كان البعض يصدق مقولة عبده الفوال الذي كان يعامله بدونية

منذ أن قطن حارتنا ويقول عنه إنه من تلك السلالات الحقيرة التي تعيش على الهامش وتنتظر أي فرصة للتسلق وادعاء أصالة المحتد، وكان دائماً ما يوصينا:

ـ القصيري مثل الزنبرك إن رفعت رجلك من عليه طار في وجهك.

ولم يبق أحد من الحارة من تلك القوة إلا بعد غياب الأول، فقد ظهر في وجوه الجميع ولم يعد أحد قادراً على التعرض لزعامة نسبه أو صد مكائده الخفية.

وقد دأب على الظهور في كل المجالس، يشتم ويصفق ويتشاجر، كان عجيباً في كل تصرفاته فهو قادر على مناطحة الجميع إن أراد، ولا يتورع عن قول أي شيء، فاكتسب عداوة الكثيرين وإن لم يظهر تلك العداوة إلا القلة.

ومع غيابه انشرحت قلوب بعض من يهاب لسانه، وإن تحور السؤال عنه قال إلى السؤال:

ـ أين اختفى القصيري؟

⁂

أسرت زوجة القصيري حديثاً لجارتها، فأفشت به وسرى في الأفواه كالحمى المستطصعة، كان الرجال في مجالسهم يتضاحكون وقد أبدوا كثيراً من الانشراح للروائح التي صاحبت الخبر

قالت تلك الجارة:

رأى القصيري في المنام أنه يحلق في السماء كعصفور، وكلما أراد أن يهبط إلى الأرض سمع منادياً يهتف به

— مكانك هنا.

وأوّل حلمه لزوجته بأنه بشارة لارتفاع قدره، لكنه أبدى تشاؤماً في الليلة التالية حين رأى الجهدي تمسح أظافره ولا يبقي له إلا على جناحين مهيضين، وأصبح لا يستيقظ من نومه عنه يرى تفسيراً واضحاً لحلمه الأول، كان ينام ثلاث ليال، وإذا استيقظ عاث في الحي سباباً وشجاراً.

أما الروائد التي حفت بالخبر فهي كثيرة، وكلها تسخر من منطق عقل القصيري، أيسرها أنه سكير لا يعبق وأفحشها أنه لم يعد قادراً على إتيان دجاجة فيهرب إلى النوم خشية افتضاح أمره مع امرأة غدت توسعه لوماً وتهدده بتعليق فحولته الرخوة على مسامع أهل الحي.

ويرسمون مشهداً خفياً لهذا العجز قائلين: مصيبته جاءت من دعوة أطلقها عليه الشيخ أبو عبدالله، حين سخر من تلاوته على الملأ، فرفع الشيخ المقصر يده إلى السماء داعياً: اللهم أنس أوصاله حتى لا يسير خلفه، أو أسقط عنه كسفاً من ليل لا يحق منه

ويقسم الكثيرون أن نومه يطول لعشر ليالٍ.

*

ترك الصبية ملاعبهم وكرتهم الملفقة وعادوا لذويهم، يحملون الخبر

قال عبدالله الوسمي (وهو صبي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره)

- رأيت القصيري من خلال شقوق نافذته ينتفخ كـ(لستك) محببه بورم من جهة وينحسر من جهة

وقال عمر يحيى (١٢ عاماً):

- رأيت بطنه كالقربة كلما ضغط عليها سال الورم في أطرافه.

وقال خالد البكر (١٣ عاماً).

- كنت أحس أنه على وشك أن ينفجر في وجهي

وقال صالح مصمري (١٢ عاماً):

- كنت أظن أن القصيري أمسك بكرتنا ونفخها على هذه الهيئة، ولم أكن لأعرف أنه هو إلا حين سمعت ذلك من أصدقائي.

وقال حسن فهمي (١٥ عاماً)

- كانت سمنته كجمرة تشعل كل أطرافه فلم يبق منه إلا الرأس الذي استعصى على الشعل

وقال جمال الوردي (١٤ عاماً):

- لا أستطيع أن أنام فهو كالقنبلة سينفجر في أي حين

سمع الأهالي حكايات أبنائهم بشيء من الاستخفاف، لكنهم حين وقفوا على رقدة القصيري لم يستطيعوا النوم خشية أن

ينفجر فجأة، وكان كثير من جيرانه يتوقعون تلك فوضعوا أصابعهم في آذانهم وتحفزوا لاستقبال انفجار مدوّ، غير أن يستبدلوا وضع أصابعهم على أنوفهم اتقاء نتن سيلتصق بالحارة لزمن طويل.

≈

مضى الليل بترقب وتوجس. كان معظم رجالات الحارة يقفون أمام جسد القصيري وعلى وجوههم علامات الفزع، فلم يكن بمقدورهم عمل شيء سوى انتظار الخاتمة التي لا يعرفون إلى أي حد يمكن أن تكون، ولم تركض شماتة في بالهم، بل نسوا كل شيء وتعلقت على أهدابهم شفافية دمع كحبات لؤلؤ تزين محاجرهم، وتشجرت الدعوات من أفواههم كأغصان الليلاب.

في الأيام الأولى من محنة القصيري سالت شماتة مرة من أفواه بعض المتأذين من (زفارة) لسانه لكنهم سرعان ما تناسوا كل رذائله وجلسوا أمام جسده مكللين إشفاقاً وحسرة لما آل إليه، كان يراودهم بعض الأمل في أن يقوم طبيب المستشفى العام بعمل شيء يوقف ذلك الانتفاخ المريع، والتخفيف عنه، لكن الطبيب مكث معه بعض الوقت وأعلن عجزه حيال حالته الغريبة والمدهشة، وإن أبدى اهتماماً به من منطلق علمي لا من أجل إنقاذ حياته، وقد صرح بالمكوث معه لليلتين متتاليتين كان خلالها يرصد التغيرات المتلاحقة لجسد القصيري ويقرأ في كتب جلبها معه لتساعده على فهم طبيعة تلك الحالة التي تحدث لأول مرة كما كان يؤكد لرجالات الحارة الذين أحضروا يتوسلون إليه عمل أي شيء يساعد في إنقاذ حياة القصيري فكان في كل

مرة يقسم أنه لا يحدث من العدم شيئاً بعيد صاحبهم، وفي الليلة الثالثة خرج ولم يعد.

ولم يأسموا على رحيله فقد تبادر إلى نفوسهم الشك في معرفته حتى أن أبا إبراهيم المسجد أقسم على ذلك
- هذا الطبيب لا يقدر على علاج بقرة بل كل أطباء المستشفى العام لا يعرفون سوى ترويج الموت.

وأعاد قسمه مرة أخرى مدللاً على جهل الأطباء.
- ألا ترون كل من دخل المستشفى لا يعود لمحيلة، وإن عاد،عاد بعاهة سرعان ما تذهب به للقبر؟ فلا تأسفوا على رحيله، وسوف تتدبر الأمر مع العطارين فهم أكثر دراية بمثل هذه الحالات.

وأسف على تجاهل رأيه حين تبرع العماري بحضور حكيم هندي، ساهم في شفاء حالات ورم عجيبة كما زعم الجمالي وقد وقف الحكيم الهندي على جسد القصيري وأخذ يهز رأسه، وتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة وهو يمسح يديه على معرق رأسه وخرج فاركاً تمتماته من غير أن يرد على أسئلتهم المتلاحقة هذا الموقف قوّى من حجة أبي إبراهيم المسجد الذي قام عالياً كمن ظفر بغنيمة
- ألم أقل لكم إن هؤلاء الأطباء أشبه بالقصابين الذين تركل إليهم مهمة إنعاش مرارع يابسة!!

وإزاء عجز الحكماء، حاولوا إلى المداوين بالأعشاب مستعينين بأبي إبراهيم المسجد، وقد ادعى بعضهم أن سحراً اختلط بأمعائه ولا حل لمعضلته إلا بسقيه دم شاة جبلي، وقد صبو في فمه المرحوم

قريباً من عماد شاة حبلى تبرع بها عدنان الصيرفي، تلك الشاة ثم نمير بلعومه المخشور ما بين ترقوته وانتفاخ مؤخرة رأسه، فكان الدم يسيل من شدقيه معرضاً أغطية أسرته للتلف، وإن عبر جدران بلعومه عنه كحوت طافيا على سطح بحر هادئ فهملاً الجدران والوجوه المحيطة به دماً مخلوطاً بمخاط معقود كحبيبات مطاطية أصابها الحرق. واستجدى بصراخ الحمدة الساخط والمكرور في آن:

- كفوا عن هذه المحاولات العقيمة و ابحثوا عن وسيلة أخرى تنجي الرجل مما هو فيه.

وقد كفوا عن تلك المهزلة وحملوا آنية الدم بعيداً وأخذوا يفكرون في حل عبر يوقف هذا الورم المتنامي، وعندما عجزوا عن الإتيان بحل شاف جلسوا أمامه حيارى يقلبون خبراتهم ويستجدون النصح.

ولم يعد أمام أهل الحارة سوى انتظار النهاية المحتومة وقد استعجلوا نهايته فقد أبدى بعضهم تذمره من هذه الحالة وتمنوا موته ليريحهم مما هم فيه مختبئين هذه الأمنية تحت القول إن موته راحة له وأصبحت خشيتهم أن ينفجر فجأة ولا يعرفوا كيف يلمون أشلاءه المتناثرة سعة التكعيب، فقد استحال إلى بالون كبير وغاصت أطرافه في تلك المسحة المتنامية والتي التهمت كل أطرافه وأحالتها إلى زوائد منتفخة مشدودة توشك على الانفجار. كان آخر طرف تمدد رأسه، فقد أخذ في الانتفاخ ملتهماً أذنيه وفمه وعينيه وغدا الرأس كبالون صغير ألصق ببالون كبير، وفقد السيطرة على عينيه اللتين جحظتا وباتتا تثيران الرعب ببروزهما وتأرجح الحاد، وتشقق فمه معوجاً حنكه ذا الأسنان الصناعية وقد ضمر لسانه حتى غدا كحبة

الصندوق المطلوب، وبدأ جسده يرتفع من على السرير رويداً رويداً ويعلو، فصاح أبو غالب

– اربطوه قبل أن يصطدم بطنه بالسقف (عبث).

سخروا من هذا الاقتراح في البدء لكنه تحول إلى مهمة شاقة حين تمدد لانتفاخ بلغتهم خبراً إصابة من الغرفة، كانت أطرافه مشدودة كبالون نفخ أكثر من الحد المسموح به على تمكنهم تلك لأطراف من ربطه أو ملامستها، وفكروا في إخراجه من الغرفة لكن جسده زاد تمدداً وأصبح من المستحيل إخراجه من غير أن يحتك بعتبتي الباب وينفجر، وإزاء هذا، اقترح عمدة الحي إزالة سقف الغرفة لكن هذا الاقتراح لم يجد التأييد إلا حين أخذ جسده ينتفخ ويتمدد فضاقت الغرفة وبدأ منها المتواجدون الواحد إثر الآخر حتى لم يعد بمقدور شخص البقاء معه في الغرفة، عندها أصبح اقتراح العمدة ذا جدوى، فأرسلوا في طلب عيسى البنا الذي نهض بالمهمة بعد أن أقام عليه متراساً يقيه تساقط الحجارة أو الأخشاب الناتجة من إزالة السقف، استغرق نصب المتراس يومين متتالين وبعد أن قشع السقف تماماً أزالوا تلك المقالة وربطوه بحبل لُفّت بقطن وصعد أربعة آخرون لاستلامه من السطح، وأثناء سلمه انصرم الحبل الذي كان ممسكاً به فحلق جسده في الفضاء وأخذ يتراقص ويبتعد كطائرة ورق مقطوع خيطها فأحدث تراقص وتبعد صوت لدى الجميع.

# نبت القاع

منذ أربع سنوات لم يغير جلسته، يظل في مواجهة البحر يحدق في الأفق بترقب وصبر نافدين، يجلس جامداً كقارب ألقي به على شط هذا البحر ليستقبل الموج والطحالب وأخبار الموانئ موحشة

من بعيد تلمحه كصخرة نحتت على هيئة إنسان مكور وبقي رأسه معلقاً في البعيد. ومع الغروب نكتشف أن تلك الصخرة ما هي إلا شخص رضي أن يسمر نفسه يومياً بهذه الناحية المقفرة من شاطئ المدينة، تعبره الريح ورذاذ البحر وأصوات النوارس العالقة على مقربة من رائحتها.

ومن هناك، من ملتقى مسرح أمواج وأشرعة وقوارب، وصيادون وأسماك، وسقط الشمس في مداها، ولا شيء يأتي مما يموج به البال.

يخرج من بيته مع الهدولة وثمة دعوات تمسكها امرأة مسنة خلف عتبة، فهي في مثل هذا الوقت تقل الأقدام المتجهة صوب البحر، فيعتم حلو المكان من الصيادين والباعة ويتسلل بمحاذاة البحر باتجاه الشمال مادّاً خطوات عجلة عابراً قوارب الصيادين المتناثرة على مقربة من ألسنة الأمواج الرخوة وثمة أمل يتقطر بخاطره فيختصر له المؤاد بحالين اندرة النظرات السريعة ويمرق بسرعة وارتياب، وإذا رأى شخصاً قادماً في طريقه تلملمت خطواته ووقف كمن يرصد جميع أصداف البحر النائمة على امتداد الساحل، ويسلك الطرق البعيدة عن ممشى المارة حتى إذا أصبح في منأى من بيت العيون الصيقة والوجوه السمراء، أخرج كيس قمح صغيراً من جيبه وأخذ ينثر حبيباته للطيور التي تملأ تلك الناحية، ولم يكن ليقطع عمله مهما كان الأمر، ولا يصل إلى مكانه هذا إلا مع الأصيل حيث تتجمع طيور النوارس فيجاورها صامتاً ينمو عيناه مركضتان في الأفق بترقب وصبر مملول.

وحين يمسح الشمس تتحمر انتحارها اليومي وتقبر قرصها في لدى، ينفض مؤخرته ويعود من حيث أتى لتبتلعه الأزقة الضيقة في جوف الحارة.

في البيت تستقبله بلهفة وتتلمس جسده المدرع، وبصوت مبحوح مغلوف لم ينضب منذ خمسة وعشرين عاماً تعود بهمتها القديمة:

- بشرا

فيضمها إلى صدره برفق، ويجدها في موقعها الذي أصبحت

تألمه كما تألم رائحتها، فتتحشرج الكلمات في حلقها فلا تقوى على شيء سوى الإجهاش بالبكاء، وتتمتم بلوعة
ـ لا تبكي.. سيعود.

في الماضي البعيد كان صغيراً لا يعرف سراً لهذه الدموع المتسكبة على الدوام والتي تركت عينيها محاصرتين بهالتين من كل شيء، لا حركتهما المتلاحقة كان يسمعها في أقصى الليل وهي منتحبة، وعندما كبر قليلاً كانت تسند رأسه إلى حجرها كلما سألها عن أبيه وتحكي له أنه سيأتي محلقاً ويهبط عليهما ذات مساء من إحدى الفرج، ولا تنسى أن تشير لتلك الفرج المستقرة بأسقف الغرف. كان يظن أن هذه الحكاية ستنقضي وينتهي أثرها حينما يكبر ظاناً أنها حكاية تنسجها لتستجلب النوم لعينيه المفتوحتين على الدوام (والتي أصبحت عادته حتى عندما كبر وأصبح رجلاً ثلاثينياً إذ ظل ينام مفتوح العينين) لكن تلك الحكاية لم تطمس بريقها السنوات الطوال ولم تنسها هذه المرأة التي يبست عيناها من سفح الدموع.

في أحد الأيام وبينما كان يعيد ترميم المنزل ثارت ثورة لم يعهدها منها وأقسمت أن تترك له الدار وتهيم في أرض الله إذا لم يترك تلك الفرج على حالتها الأولى، تلك الفرج التي استقطعتها في سقف كل غرفة من غرف المنزل، وكانت تصيح به
ـ أنسيت أن أباك سيعود إلينا من خلالها؟

ولكي لا يغضبها فقد استبقاها مشرعة للريح والمطر، فما أن تحل مواسم الأمطار حتى يتحول المنزل إلى مستنقعات يتم رفعها بكل

عنه، وكان يجد صعوبة في إقناعها بترح تلك المياه الراكدة بعد المطر حيث تصر على بقائها وهي تمتمم
- أجد فيها رائحة أبيك.

فيستجيب لها وتبقى مياه الأمطار راكدة دون أن يجرؤ على مسحها حتى تتحول إلى مياه آسنة تستجلب البعوض ودويبات الأرض. عندها فقط تأتي لتقول له:
- لن يأتي أبوك في هذا الموسم فامسح هذه المياه الآسنة.

وفي كل عام تمضي موسم الأمطار محلقة حلماً قديماً شاخ بذاكرة تلك المرأة التي لم تيأس من عودة زوجها الذي خرج ذات ليلة ولم يعد، فقد حكى لها قبل اختفائه أنه رأى نسراً قوياً يخطفه ويحلق به في الفضاء ويقذف به في عتمة البحار النائية. وبعدها بليلة واحدة وبينما كانت نائمة أحست بشيء يتحرك من حولها وينفرج سقف غرفتها لتلمح زوجها معلقاً في الفضاء كطائر عملاق يخفق بجناحيه بشدة صوب البحر. كانت تظن أنها تحلم فأغمضت عينيها وواصلت نومها وعندما أفاقت وجدت جزءاً من سقف غرفتها منبعجاً ولم تجد زوجها.

وروت أنها قطعت الأرض تبحث عنه ولم تجد لديها إلا حينما أخبرها شيخ بأن زوجها سيعود ذات ليلة من المكان نفسه الذي خرج منه وأوصاها أن تبقي بيتها مفتوحاً وأن تهيئ له عشاءه ليلياً فسيأتي جائعاً كمن لم يأكل طوال حياته.

كانت تروي هذه الحكاية يومياً على مسامعه حتى جزم أن الجنون

انتاب عقلها وتركها عبئاً يحمله ضمن همومه اليومية، فكان يسايرها وفق ما تشتهي، ونادراً ما يتذمر منها أو يثور لتصرفاتها الغريبة.

كانت تدور ليلاً على تلك الفرجات وتنظر إليها لدقائق وهي تحمل شرشفاً طويلاً تتغطى به تحري زوجها حينما يأتي، فقد أقسمت أنه سيأتي عارياً كما تراه يومياً في منامها، ولم تكفّ عن هذه العادة منذ أن غيّب زوجها عن البيت، فهي تعتذر من كثرة نومها لأنها تقول:

- يلح عليّ أن أمكث معه لطول وقت ممكن فلا تلمني فأنت لا تعرف أباك، إنه صارم والويل من يغضبه، وأنا أحبه ولا أريد إغضابه.

فيهز الابن كتفيه مخذولاً، ويتركها وهي تلعنه لعدم تصديقها، وقد تمسك به معاتبة:

- أتظن أن أمك قد أصابها الجنون؟ يمكن أن أقرأ ذلك في عينيك ..قل ولا تخف.

وعندما تجده صامتاً وعيناه تركضان في تجاعيد شكلي تعركه ومباحثها تركض في وجهه وصوتها يندح عميقاً متهدجاً

- سوف يأتي كما أراه ليلياً، ساعتها ستندم وتطلب عفوي ولن تجده

كانت في ما مضى تجمع مياه الأمطار المنسكبة من فرجات غرف المنزل في أواني خزفية وتسقي بها أزهاراً أعدتها لذلك وكلما نبتت نبتة ظنت أنه هو فقد أقسمت أنه سينبت كما تنبت أشجار الورد

وستخرج من عمق إحشائها، لتطير إلى السماء ويعود من حيث خرج، إلا أن خيبات الأمل كانت تلاحقها فما أن تبتعد النبتة بساقها عن الأرض قليلاً حتى تذوي وتذبل فتنحسر كل محاولاتها لإعادة استقامتها، ولم تعبر هذه العادة إلا حينما حسبت أن حسير تتبول بتفث الأرض، فلجأت إلى جعل كل غرفة من غرف المنزل مهيأة لأن تنهض بحسرة لدور كان بيتاً غريباً، لسقف مبعجة وأرض مرروحه وامرأة تدور بشرشفها ليلياً لتنظر من تستر عورته

غالباً ما يتركها وهي لا تزال في ثورتها العارمة

ـ سوف يأتي كما أراه يلب، ساعتها ستدم وتطلب عفوي ولن تجده

≈

دأبت على المكوث في مقهى الشاطئ حيث يتواجد الصيادون ويتناثرون في أماكن مختلفة لا حديث لهم إلا البحر ومغامراته، والبعض منهم يستغل هذا الوقت في رتق شباكه أو إصلاح قاربه الشراعي الذي مصحته رياح البحور العميقة، بينما يظل داخل المقهى مرتعاً للعب والضحكات وحساء الشاي. وإن كانت العالية تأنس بالجلوس واجترار الحكايات القديمة

لم يكن يستهويهم الصيد بالقرب من المدينة، إذ تجدهم ينطلقون جماعات باتجاه السودان أو إثيوبيا وبالقرب من تلك السواحل يرمون شباكهم وآمالهم وأهازيجهم المتعلقة بالشجن وينتظرون ما يقذفه البحر لهم.

يقولون إن أبي كان يمتلك صوتاً رخيماً ينشد له أكسل الصيادين فيهتز كالملدوغ يجذب الشباك ويشارك الصيادين ترديد الغناء

في هذا المقهى لا يجلس إلا من ارتبط بالبحر صياداً أو بحار قوارب أو بائعاً سمكاً أو مخرجاً، ولم أكن لأحظى بامتياز في هذا المقهى لو لم أكن ابن ذلك البحار الذي كان كما يقولون صياداً لم ينجب البحر مثيلاً له. فقد كان يعرف أسراره وخباياه وكثير منهم لا يؤمن بأن أبي يمكن أن يكون قد ابتلعه البحر كما يبتلع الأجساد الرخوة والتي سرعان ما يمجها ويقذف بها على سطحه لتطفو وتحتضنها الطير

ويرجحون أنه من حيلة هذه المدينة التي تستقبل الغرباء وهي نائمة، أولئك الغرباء الذين يحولون بحرها إلى مستعمرات وأحواض لأسماك الزينة فلا تثور لكرامة بحرها، ولأنه بحار عنيد من هذه الميوعة وهجرها صوب المحيطات حيث يكون البحر فتياً

يومياً أجلس في هذا المقهى ارتشف كؤوس الشاي وأستمع لتلك الحكايات العجيبة من مغامرات الصيادين حتى إذا دنا الغروب عدت إلى البيت لأجد أمي لا تزال توسوس بسيرة زوجها

منذ أيام قدم أحد الصيادين (السوادنه) فكان محل حفاوة الجميع حيث أحاطوا به بإجلال وانثالت الحكايات ورائحة البحر، وأغنيات الدان دان.

كنت على مقربة منه فكان يجالسني النظر بين الحين والآخر بشيء من التأمل والتمحيص. كنت أتأمله بصحته القوية والمكورة على رأسه كجبل قطن متماسك وقد تناسقت مع ذقنه الكثيفة

المهذبة المخروطة ببياض ناصع. كانت عيناه شديدتي اللمعان ترمصان ببريق خاطف ولهب مقدرة على اختراق من تنظران إليه حتى أحسست به يتجول في خاطري، نظراته المتكررة أشعرتني بالضيق فهممت بمغادرة المقهى، إلا أن صوت شيخ الصيادين جعلني أتوقف وأستجيب له، تحركت باتجاهه، كان يجلس عن يمينه ذلك البحار السوداني وعندما وقفت أمامهما قال له

ـ هذا ابن الناخوذة حسين العلي.

مد يده مصافحاً ومرحباً ترحيباً مبالغاً فيه، فشعرت بالحرج وبادلته التحية فتمتم وعيناه تنهبان وجهي

ـ كيف حال أبيك؟

فتحرك شيخ الصيادين في جلسته مصوباً النظر صوبه باستنكار

ـ ألا تعرف أنه متغيب يا شيخنا؟

فلم يبد اهتماماً، وغرس عينه في وجهي وهو لا يزال يبث ابتسامته الناعمة ..وباغتني

ـ أما زالت الوالدة تنتظره؟

انتصبت وهززت رأسي بالإيجاب فقال

ـ لا تذهب أريد أن أحدثك.

فأوسع لي بعض الصيادين مكاناً بينهم وجلست أنتظر بينما كان يسرد بعض حكاياته مع البحر بعد أن فرغ المجلس إلا من كبار الصيادين استأذنهم وانتحى بي جانباً، وأخذ يلاطفني، أوصاني أولاً بوالدتي خيراً

- كن وجيهاً بإملك
- بكتها لا تمل من ترديد سيرة أبي الذي مضى من زمن بعيد

فألقى كلمته بثقة ليزيح كل ما يدهشني

- مسعود
- هل تعرف عنه شيئاً؟

صمت صمتاً مهيباً وإذ ظلت عيناه تتفرسانني بارتياب، وبنبرة مترددة تساءل:

- هل تريد رؤيته الآن؟

شككت كثيراً بالرجل، وبتلك الجملة التي منحها له الصيادون، فرددت بآلية

- أظنه قد مات من أمد بعيد

ابتسم ابتسامة مطمئنة ولم يعقب على مقولتي وتناول كأس شاي فارغاً وصب فيه ماء ورفعه إلى فمه وأخذ يتمتم عليه وأدناه من عيني لأمح رجلاً يجلس في قارب يحرك شراعاً بمهل وابتعاد وقد أصابه الضمور .كنت أحدق بدهشة، ولم أفق إلا على صوت البحار السوداني وهو يقول:

- هذا هو أبوك. انتظره سيعود من البحر كما ذهب إليه. إذا لم تنتظره فلن يأتي!!

قلت متلهفاً:

- متى سيأتي؟!
- هذا في علم لا أقدر على قراءته. ولكنه سيأتي

وقبل أن يهم بالتحرك قال:

– إياك أن تتأخر عن لقائه فسيكون أحوج إليك ساعة أن يصل.

ونفض مؤخرته ماشياً بعد باتجاهي وضغط عليها ببرود، ثم مضى ينهب الطريق بخطوته الفارعة، وقبل أن يبتعد استدار إلي موصياً ومحذراً:

– عليك بالانتظار مع غروب كل شمس وإياك أن تتخلف الموعد لأي سبب من الأسباب، وإذا تغيبت عن الموعد فسيلقى بيتكم من إحدى المرجحات حائر داري هو روح أبيك فحذر أن تغيب وحذر أن يراك أحد.. مفهوم.

استداري صحت به:

– أين أنتظره؟

كان يطلق الكلمات من خلفه:

– من جهة بزوغ نجوم الدب الصغير

لم تشفني إجابته فانطلقت راكضاً خلفه، فاستدار وقد بدأت على وجهه علامة الغضب:

– لا تتبعني ويكفي ما سمعت.

كانت كلماته حادة ونظراته عدائية، فامتثلت لأوامره ولم ألحق به، وواصل سيره الحثيث باتجاه البحر بينما كان كبار الصيادين يلوحون بأياديهم لوداعه.

من ذلك اليوم وأن أخرج يوماً أنتظر مقدم أبي

*

تحاملت على نفسي بقدر الاستطاعة كي أنهض وأتجه إلى تلك البقعة النائية من الشط، لكن هذا الدوار اللعين منعني بالرغم المحاولات العديدة التي قمت بها والتي لإسكات هذا الطنين الذي ينمو من الداخل ويتحول إلى دوار عنيف يعصف بكل كياني فلا أقوى على شيء سوى الإمساك بوسادتي ودفن رأسي بين طرفيها بينما كل شيء من حولي يموج ويدور، ويدور ويتحول إلى دوائر تتسع وتضيق وتجذبني بقوة وعنف لأسفلها

كنت أبتعد لأتغلب على هذا الدوار ولا شيء يربطني بالأرض إلا صوت أمي التي كانت تواسيني بصوت حانٍ

- تحاملي على نفسك فقد أزف الموعد.

أبتعد عنه كثيراً، وأغرق بدواري، أذهب معه بعيداً، وأمسك بنفسي كي لا ترحل فتحملني وتنطلق بي كالإعصار وأغيب، أغيب في اللاشيء، في أوقات خلاصي متباعدة أسمعها، تستنهضني، فأجاهد وأبتعد وأغرق في دواري، أرى بحراً عظيماً وأرى جسدي يتقاذفه موج يمسحه حيناً ويلطمه حيناً، وأن أنحبط وأرفع رأسي، وأصعد، أصعد وأبتعد قليلاً عن الدوائر السفلية بدت الدوار من بعيد عاد صوتها ملحاً ليرجع الدفوف الثقيلة، ويشتد حيناً ويدخل بأسى أحسست بيدها تمشط شعري، ورائحة عطر ليمون ناعمة من أنسامك تقاربت بالقرب من رأسي أخذت أبتعد بالإمساك بصوتها وكأنه حبل نجاة يمد كانت ترمي حبال البحر وأسماكه

فجأة تحللت الأسماك عن مصاحبتي وتعبر صوت أبي فسمعتها تصيح بحزن:

ـ هذا طائر داوٍ سيسقط علينا ،انهض انهض انهض.

وكلما حاولت النهوض خارت قواي واتسعت دائرة الدوار فأسمع أبي يسبح باتجاه الشاطئ بصعوبة تتخاطفه الأمواج وصوته يصيح

ـ ساعدني انهض ساعدني انهض

وسبتلعه دوامة كبيرة، فأراه يتلاشى، ليعود الصوت كانت والدتي تحاول إنهاضي وكلما حاولت النهوض يزداد الدوار، فألمح البحر يعصف بأمواجه ويمضي في الشوارع يدخل المنازل ويسحبني صوب جثة انتفخت على سطحه لأسحبها ونتلاشى سوياً في القاع.

# جارتنا الصغيرة

ـ هل ما أقوم به إثمٌ حماقة؟

كانت أصغر مما توقعت، فهذه هي المرة الأولى التي أراها بوضوح، وعلى الأرجح أن عمرها لا يتجاوز العشرين عاماً على أبعد تقدير، وجهها جذاب بصورة لا تمكنك من معرفة سر جاذبيتها تلك، فقط تشعر أن ثمة جمالاً غريباً يسكن بين نمنمة الملامح الهادئة وكأنها لوحة رسمت بيد أحد عباقرة فناني القرن التاسع عشر

كانت أجمل بكثير مما حدثتني زوجتي، فهي فتاة دقيقة الملامح، خمرية البشرة، شفتها السفلى مسترخية وناضجة تعزم أن دمها سيقطر في أي لحظة، ولها عينان كلحلتان، سدلت أهدابها حتى تشت للأعلى فأكسبتها سحراً فاتناً، بينما كانت سحنتها هادئة تشعرك أن ثمة ألماً حنط جمالها فاستسلمت له بخنوع

كانت تقف في البلكونة لنشر غسيلها، وكان من عادتي أن أتراجع عند رؤية إحدى الجارات إذا جمعتني حوادث طارئة، ولم يكن هذا عفافاً أو ورعاً بل استجابة لخوف مناهبي من أن تلحق بمسيرتي أقاويل النسوة من أن عيني طويلة وجائعة، أو أن تخرج إحداهن ويبلغ زوجتي عن انشراح عيني، عندها لن تكف زوجتي عن تأنيبي وتذكيري بأنني أقدمت على شيء عظيم وأنها لن تغفره لي وستظل تعيّرني به كيف حاولت أن أكون سيد بيت. لكن هذه المرة تخليت عن تخوفي أمام فتنة جارتنا الصغيرة، وأخذت أتطلع إليها بنشوة.

كان مقدمها إلى الحي حدثاً تناقلته النسوة بدهشة واشمئزاز، ففي أول ليلة لمقدمها تعالت صرخاتها ونحيبها وكنا نسمعها تصرخ باستغاثة محمومة:

ـ ارحمني..

وتذهب استغاثتها توقظ سكون الليل من غير أن تجد أحداً يجيب استغاثتها المبهمة في المسامع، وهذا لا يعني إنصات الجيران لتلك الصرخات المحمومة بكثير من التحسر والاستغراب، كنت قد استويت في مرقدي وخاطبت زوجتي بدهشة:

ـ أهذا صوت العروسة الجديدة؟

فتهز رأسها كمن تنتظر أن تنتهي تلك الحزورة الركيكة لتوقف اهتزازها المتكرر أمام دهشتي المفتعلة. حاولت أن أعرف منها شيئاً عنها لكنها أبدت عدم معرفة مسبقة بها، وبكلمات مقتضبة أخبرتني أن العريس ليس صغيراً وقد سبق له الزواج مرات عديدة. كانت هذه الأخبار جرعة مما تناقلته نساء الحي عن الساكن الجديد نقلاً عن

زوجة صاحب العمارة، وقبل أن تطول استفساراتي أبدت امتعاضها من أولئك الرجال الذين يسعون لإشباع نزواتهم من غير أن يفكروا بمصير أبنائهم، ولم أحاول التعليق على ذلك لامتعاض خشية أن تنقلب ليلتنا إلى صراخ متبادل.

كان صراخاً أنثوياً يمتد في عتمة الليل بانكسار وألم مبرحين، وإزاء هذا الاستنجاد المحموم تقافزت عيوننا من خلال البلكونات والنوافذ فلا نلمح إلا عيون بعضنا الرابضة والمتربصة بتلك الغرفة ذات الأضواء الشحيحة والمغطاة بستارة غامقة.

يبدو أن شعرنا بالخجل من تحديقنا المتبادل فانسحبت عيوننا إلى داخل جحورها واكتفينا بسماع تلك الصرخات المستغيثة والتي تكتم حيناً وتشق سكون الليل أحياناً كثيرة وكأنها هاربة من فم محكم الإغلاق، وشيئاً فشيئاً أخذت تتراخى تلك الصرخات وتجاور ألمها بصمت.

لم أجد رغبة في النوم فنهضت من مرقدي أبحث عن علبة الدخان وتركت زوجتي مسترخية كقطة أخذت مطلوبها وتمطيها لبسط أطرافها بما يحقق لها الاستحواذ على أكبر مساحة من سرير نومنا الخشبي، كنت أذرع غرفة الصالة بخطوات متناسقة في محاولة أن لا أتعثر بالتحف التي تملأ حيزاً كبيراً من جنبات الغرفة فهيأ لي أن جرس الباب يدق، أرهفت السمع محاولاً إغفال صوت المكيف الذي يئز برتابة يقطعه بين حين وآخر صوت أقل ضجيجاً، كانت أضواء الغرفة معتمة فلم أتمكن من الحصول على علبة الدخان مما حملني على كبس زر الإنارة لتنهض زوجتي متأففة
- تحب دائماً إزعاجي.

اعتذرت بعرف نسبي كطفل أدمن الاعتذار المتكرر، كان صوت الجرس يصل متقطعاً، أكدت هذا زوجتي بشيء من السخرية
- ألا تسمع الباب، ثم أنك تسمع صوت النساء فقط؟

ثم أشأ أن نتبادل المناكفات، فأهملتها وهي لا تزال تتمطى على السرير، واتجهت مباشرة لأرى من الطارق، كنت أهمس لنفسي.
- من يكون هذا الزائر المزعج؟

رفعت صوتي من خلف الباب:
- من؟
- أنا جارك الجديد.

فتحت الباب على عجل كان يقف رجل خمسيني ذو جثة ضخمة لا يزال عالقة بملامحه آثار نوم مبكر، وبلة منهزمة كان يقطع الكلمات قطعاً
- عفواً للإزعاج

أبديت عدم الاكتراث، وأفهمته أننا لا نزال مستيقظين، فقال على عجل
- الأهل يعانون من حالة مرض فهل بإمكانك نقلنا إلى المستشفى
- سلامات
- الله يسلمك.
- خير

وقف أمامي مباشرة ووجهه يطفح بالضيق من تطفلي ومحاولتي

لإقحام نفسي في أمر لم يرد الإفصاح عنه، فاستدركت على عجل

- حسناً، فقط أرتدي ملابسي

ودعوته للدخول لكنه امتنع ووعد بزيارة أخرى في وقت مناسب، تحركت إلى الداخل لارتداء ملابسي، وتركت الباب موارباً، كانت زوجتي قد غادرت فراشها ووقفت في الصالة وحين رأتني بادرتني بالأسئلة.

- من الطارق؟
- العريس.
- ماذا يريد؟
- المستشفى
- طبعاً تبرعت بنفسك لأداء المهمة.
- ...
- تعجبك هذه التبرعات.
- ..
- لو كنت أنا المريضة لادعيت أنك متعب أو على وشك النوم ولأجبرتني على تحمل الألم مقابل أن تستمتع بنومك
- ..
- لماذا لا ترد؟
- ماذا أقول؟
- قل إنك مغرم برؤية النساء وإظهار شهامتك بهن.
- الذي يطرق على الباب رجل وليس امرأة
- أنت تقدم السبت
- وأنت تقدمين سوء الظن.

تجهت مباشرة نحو علّاقة الملابس، وكنا على وشك أن نُسمع الجيران أصواتنا لأنه ألقت بالثوب الذي كنت أرتديه في الصالة وليس هناك ثوب بديل. وصححت على عصبيتي المفاجئة بأنها دائماً ما تنهض معي وتقوم بكي ثيابي قبل مصدري لعمل ودث أثناء تناولي لوجبة الإفطار، واختصرنا جولاً طويلاً فقد تجهت إلى حزمة الملابس وارتديت ثوباً مغرباً وهممت بالخروج، فأمسكت بي

- تريد أن تفضحني؟

وأصرت على أن تقوم بكي ثوب آخر وأقسمت أنها ستنجز مهمة الكي قبل أن أخرج من الحمام، فأصررت على الخروج بالرغم من تلك الكلمات التي قذفتها على مسامعي

- أنت دائماً تسعى لفضيحتي حين تخرج بثياب لا تليق برجل متزوج،ماذا يقول الناس عني؟ لا أهتم بهندامك.

عندما خرجت لم يكن جاري في مكانه، هرعت من سلم الفرج وانتظرت مجبور سيجري بعد أن أدرت محركها، لكنه لم يظهر وفكرت أن أقوم باستدعائه، وبعد انتظار طويل صعدت إلى شقته وقرعت الجرس وانتظرت وأعدت المحاولة وانتظرت. عندها أيقنت أن جاري لم ينتظرني لو أنه سمع محادثتي أنا وزوجتي فقرر أن يستعين بشخص آخر، فعدت إلى البيت لأجد زوجتي قد رتبت نفسها لخوض شجار استبقته من حكايات قديمة! كانت مستفزة وفي حالة عدائية تبحث عن شنها في مثل هذه الحالات، وبدأنا الشجار الذي انتهى بأن حملت وسادتي وغطائي وغبت في الغرفة المجاورة بينما كان صوتها يلعن حظها العاثر

في صباح ذلك اليوم انتشر خبر تلك الفتاة بين النساء ويبدو أن زوجة عبدالله حسين من قام بتسريب الخبر. وظل الخبر عالقاً في أفواه النساء لمدة طويلة حتى أن الفتيات أقسمن أن لا يتزوجن فقد كان الخبر كفيلاً بجعلهن يفضلن العنوسة على الموت تحت ثور لاهث

في بادئ الأمر كان خبر العروسة غامضاً حيث قيل إن بكارتها استعصت على زوجها مما حمله على وكزها بقوة جعلت الدم يتدفق بحرارة وعلقت المسنات على هذه الحكاية بأن فتيات هذا الزمان أرق من ورق السوليفان، لكن هؤلاء المسنات سحبن هذا التعليق واستبدلنه باللوم على رجال هذا الزمان الذين يبحثون عن البكور ليدفعوهن صحوة رخوة لا تقيمها إلا أصابع اليد

ومع تدفق النسوة على بيت العروسة خرجت أخبار مدهونة كثيرة فروت ليلى - جارتهم الملاصقة - أنه استبدل عضوه بإبهامه، وأخرى - زوجة من قام بنقله إلى المستشفى - روت أنه اندفع على المسكينة كمجنون كاسر جبر الفتحتين وجعل مجراهما واحداً، وهذا يفسر لي قول زوجتي - فيما بعد بأنها:

- فتاة تسير كالضباع

لا أدري لماذا أصبحت جارتنا الصغيرة محل اهتمامي؟ وقد حاولت في بادئ الأمر أن أرهف وردت هذه الرغبة إحساساً كلما سمعت زوجتي تروي لي شيئاً مما سمعته في مجلس النساء عن هذه العروس. وتحولت مع الأيام إلى جدول يومي تتحدث فيه (أقولها بلحديث عنها من حيث لا تدري)، فروت أنها ابنة لأحد ضعفاء النفوس وقد باعها لهذا المسن مقابل عصارة. وروت أن هذه الفتاة على علاقة بشاب لم ينقطع عنها حتى بعد الزواج حيث تتالت

النسوة ـ أيضاً ـ أنه يقف يوماً أمام منزلها كلما هجر زوجها البيت بلصص، وروت عن جارتها أن العروسة رهينة لإحدى بنات العريس وأمها كانت تناديه بلقب (يا عم) حين تحضر لزيارة ابنته

اليوم رأيتهما، كنت أحس بكثير مما حدثتني زوجتي. شعرت بوجودي وأنا أحدق في وجهها بانبهار فرمقتني بنصف نظرة وأطلقت ابتسامة خفيفة، فتشجعت وهمست

ـ مساء الخير

فطلعت صوبي بدلال وحملت غسيلها وانسحبت إلى داخل شقتها، وهي تتطلع صوبي، وبعثت غمزتها بعيني، فاتسعت ابتسامتها وحركت يدها مشيرة بالانتظار

## .. من أي الجهات تأتي؟

وقفت على جثمانه، كان ممدداً باستسلام، مغمض العينين والفم، يداه مضمومتان على صدره، ودمه الذي كان يغلي باستمرار برد في أوردته وتحول لون بشرته السمراء الصافية إلى زرقة شاحبة.

دأب على الحضور إلى المقهى لا يغيب عن جلسته إلا عندما يحل ضيفاً على مستشفى «شهير»، يجلس خلف شيشته ينفث الدخان بكثافة وهو يثرثر وسعوله بصوت مسموع. لم يكن يجالسه أحد، يظل في مكانه لساعات طوال لا يقترب منه إلا النادل أثناء تغيير حجر الشيشة أو ترويحه بإبريق شاي محمض. هيئته رثة، تثير التقزز فرائحة عرقه تفور وتلتصق بالأنف كلجة من عبث. وعندما أحقره لإهماله موصياً إياه بدلق الماء على جسده يردد:

ـ رائحتنا مميزة أخرى لا تعرفها إلا الزوجات وأما

ليس لدي امرأة أسكن إليها هي التي يدفعني للتخلص من بصمتي؟

وقف المغسل على رأسه يصب الماء صباً ويخلله بين مفاصله ويدعك محاشمه بالسدر، جفل عندما رأى عانته، وتمتم
ـ أكاد أقسم أنه لم يغتسل من أمد بعيد

رد أحد جيرانه متعجلاً:
ـ هذه نهاية أمثاله، فهو لا يفيق وإن فاق سارع إلى العودة لغيبوبته بشراب مضروب.

طفحت صورته بخطايا، وكمن أحس بخطأ مفاجئ سارع بالاستغفار
ـ أستغفر الله، اللهم ارحمنا برحمتك.

فردد جار آخر يترحم:
ـ رحمه الله، لم يكن مضراً كان عقله بعيداً عنه وهذا من المخبولين.

يبدو أن المغسل ندم على مقولته فأعاد صب الماء وتدليكه وهو يدعو بأدعية لا يسمع منها إلا تمتماتها.

*

لم يكن يكره في حياته إلا اثنين: الماء والصدمات الكهربائية

وكرهه للماء أمر عجيب بدأ معه من مراهقته، فما أن يغتسل حتى

تنتشر على مساحات جلده حبيبات مقيتة، فيظل يهرشها حتى يقطر الدم من تحت أظافره، ويسدل على جسده أغطية ثقيلة تعيد إليه الدفء، ففي أيام الشتاء لا يقرب الماء البتة

في غرفته شبه المظلمة احتفظ بجردل ملأه بالتراب يتيمم به في أيام الجمع والتي حرص على أدائها في المسجد البعيد. يخرج قبل الأذان الأول ويظل يعبر الأحياء حتى يصل إلى جامع الفلاح ويدخل المسجد ويظل في سجود وركوع إلى أن تقام الصلاة، ثم يكف يستمع للخطبة ويظل يجهش بالبكاء أثناء قراءة الإمام، وبعد أن يخرج ينسى المسجد حتى الجمعة التالية، كان يردد دائماً

- من الجمعة للجمعة كفارة لما بينهما، وأنا لا أؤذي أحداً

لم أره حريصاً على شيء كحرصه على أداء صلاة الجمعة، يبدأها بدلق أواني الخمرة، ويتيمم ويقرأ القرآن ويضع خطوطاً على آيات كثيرة، وينام مبكراً، وقبل حلول الوقت يحيط راحتيه في جردل التراب المجاور مرقده ويمرر يديه على وجهه وأطرافه، ويتجه للمسجد - غالباً لا يعود لمسجد صلى به -

دائماً ما يكون محل اهتمام الآخرين، فركوعه وسجوده وبكاؤه كثير الانتباه، ويظل المصلون يحدقون به باستغراب واستنكار ويهمسون، بينما يظل غائباً عنهم في أداء طقوسه التي سكن إليها واطمأنت بها جوارحه، وما أن تنتهي الصلاة حتى يقترب منه كثير من المصلين ويدسون بيده نقوداً ويحاذرونه وهو غارق في ذهوله.

في البدء شتم ولعن وصاح:
— لست مسكيناً!

فلم يكترث بصياحه أحد، يمدون له صدقاتهم، ويغادرونه داعين له بالشفاء، ثم ارتضى بهذه الهبات بطيب خاطر إذ وجدها وسيلة جيدة تمنعه من الاستدانة والتذلل لبائع العرق

كان يروي في بعض مواقفه وهو يضحك بعمق ويردد
— لو يعرفون أن صدقاتهم تصبح سيئات في يدي لما أقسموا على منحي قرشاً واحداً. إن هؤلاء يطلبون الرحمة بصدقاتهم وأنا أحصي بها السيئات حين أشتري بها ما يخرجني من دنياهم

كان مخموراً طوال الوقت وإذا أفاق من وساوسه لم يفق من خمره، يجوب الشوارع والأزقة يهذي بصوت مرتفع ودائماً يردد
— يا ريح دلني من أي الجهات تعود؟

ذات جمعة رآه أحد الطيبين فأشفق عليه، واقترب منه مسلماً ونقده مائة ريال، ارتبك كثيراً حين رآها بيده، ومن شدة فرحة خلع سرواله وأداره في الهواء مراراً، كانت هذه بداية الشك في قواه العقلية، وعززتها بتصرفات أخرى عندما أخذ يهذي بكلام مسكوت عنه، وربطت به عيون كثيرة قادته في آخر مطافه إلى مستشفى الأمراض العقلية.

ما زال المغسل يصب الماء صباً، ويتمتم بالأدعية بينما كان جاراه المتواجدان يستعجلانه بقلق:

ـ قرب وقت الصلاة.

الماء ينساب من أسفل السرير الذي استقر عليه وجسده أزرق وتحجب عروقه الضامرة وكأنها حبال لم تجدل جيداً

(ما الذي حدث الآن؟ ما بال جلده لا يستجيب لهذا الماء البارد المنسكب على جسده ويعيب كسابق عهده؟ يا لهذه النفس تريد وتريد وتمضي دون أن تحقق ما تريد. كانت نفسه مهمة تريد أن تعرف ما لا يعرف أتعبته خلال سنوات طويلة وهي خطة غامضة انسلت من بين ضلوعه وتركته للدود والتراب يقصمانه بانتهاء. ها هو كبيت عاجزة أعمدته تركيبة كل أثاثه مأخذ يستقبل الريح والصمت بوحشة واستسلام، ها هو مسجى لم يتغير فيه شيء وكأنه استرخى للحظات ليريح رأسه من وساوسه التي لا تنام، صامت لا يقوى على شيء، أين ذلك الصخب الذي كان يتركه خلفه؟ من يصدق أن هذا الكائن كان قبل لحظات يملأ العالم كما يشتهي، ويرى أن الكون يخضع لإرادته، كان هذا قبل قليل ..قبل قليل فقط، ها هو يدخل الآن في فجوة جديدة من الزمن اللانهائي، في وجود لم يأت أحد ليخبره عن ماهيته)

كانت وفاته مفاجئة لم يخطر ببال أحد أن هذا الجسد العارم سيسقط فجأة ويتوقف قلبه عن الخفقان وستتوقف كل تلك الصراعات المبهمة التي تتحرك بداخله فجأة سقط وانطوت معه أفكاره المجنونة التي قادته مراراً إلى مستشفى (شهار) ليقضي شهوراً هناك وهو أكثر تصميماً على أفكاره

استسلم جسده لتعاسة الشلل وأخذ يترجرج ببطء تحت تلك اليد الحازمة. وضع المغسل القطن في دبره وأذنيه واستصعب عليه فتح فمه، كان مطبقاً فكيه وكأنه كان يقضم من أسفل روحه، فتصلبت أوداجه واطبقت أسنانه على بعضها بقوة وقد أصر المغسل على فتح فمه بأي طريقة كانت ليضع القطن فوق لسانه، وعندما عجز طلب ملعقة وأخذ يحاول بطرف عدة فتح ذلك الفم المطبق. وعندما استعصى عليه الأمر، استحضر ربه، وكسر ثنيته وأدخل عجز الملعقة من خلالها وضغط على طرف الملعقة فسمعت صريراً كصرير الأبواب المهملة. وكلما ترخى ضغطه عاد الفم لانطباقه، وعندما عجز عن فتح ذلك الفم بمفرده صاح يستحثني لمساعدته فأمسكنا بفكه الأسفل بينما ظل يرفع بالملعقة فكه العلوي لينفتح فمه قليلاً، استبشر المغسل وردد بحزم:

- يكفي هذا.

ودس قطعة القطن بين فكيه وحشرها حشراً.

حضر الغسل أنا والمغسل واثنان من جيرانه، وبعد انتهاء الغسل انسحبوا وبقيت معه، كان مجرد لحم بلا بشاش، لا أدري ماذا تحيلته غروقاً ثم استقدامه من مناطق بعيدة وظلت البرودة محافظة على ذلك اللحم من العفن. فجأة سرى ببالي أن جسده أخذ في التحلل وأن رائحة عفنه أخذت تجوب فضاء الغرفة، وتحسست أنني غير قادر على تحمل تلك الرائحة، وخوفاً من أن يتحلل فتحت المكيف ووجهته باتجاهه. كنت أراه يتحلل أمامي وكلما حاولت أن أطرد هذه الخيالات أجده يضحك من وعيي ويواصل تحلله وهو يضحك كعادته وصدى صوته يتردد

- كل شيء عائد فلا ترتعب.

استعذت بالله وتناولت مصحفاً قريباً ـ وضع فوق كتبه المتناثرة في داخل تلك الغرفة ذات الأثاث الرث ـ كان قد ترك عليه خطوطاً كثيرة في مواقع مختلفة، فتحته وقرأت وقرأت، وقرأت. شعرت بالارتخاء وسلمت الطمأنينة لداخلي، وكنت لا أزال خائفاً من وسواس نبت بمخيلتي فجأة!

*

عاش حياة غريبة، وفي كل مخططاتها كان يؤمن بعمق، يؤمن بالعقل وفي هذا العمق به وسائط تنقله من مراحل الفناء إلى التجدد والتشكل، كان يرفض فكرة التناسخ ويضحك بعمق عندما يمازحني بتصور أن يعود بصورة حمار! ساعتها لن تغضب إذا نادى عليك أي شخص بهذا الاسم، كان دائماً ما يكرر

ـ ثمة طريقة مثلى للعودة، إن الرياح تلف الكرة الأرضية وتعود ولا يستطيع أحد أن يجزم أنها ليست الريح نفسها التي عبرتنا قبل سنة أو أيام.

سارت جنازته سريعة صاخبة حيث اختلف حول الصلاة عليه فقد أقسم مؤذن أن أمثال هذا يدخلون النار من أوسع الأبواب، وكان الإمام متحفظاً ويردد:

ـ إن الله يعلم السر وأخفى

المصلون خرجوا ورفضوا أداء صلاة الجنازة، ولم يفلح الصوت في تذكيرهم أنه مجنون، وقد قال أحدهم: إن كان مجنوناً فهو معفي من كل الواجبات، حتى نحن نُعفى من الصلاة عليه.

صدمت كبّر الإمام لصلاة الميت لم يكن واقفاً في الصلاة سوى الخطيب وأنا وسائق السيارة التي ستقله للمقبرة ورجل عجوز لم يستطع النهوض فبقي لأداء الصلاة على أمل أن نمد أيدينا له وننهضه فيما بعد.

كانت صلاة قصيرة وسريعة وبعدها تعاونا ثلاثتنا على حمل نعشه إلى خارج المسجد وإركابه سيارة النقل الصغيرة التي كانت تنتظره، ونسينا الرجل الذي طلب مساعدته في النهوض.

انطلقت السيارة بينما خلفي أنا والسائق نتبادل الآراء في أي المقابر ندفنه؟!

≈

دائماً ما نجلس في المقهى نثرثر أعمارنا وفي أحيان كثيرة نتبادل النكات البذيئة تعليقاً على ما يحدث.

حياته مضحكة تبدأ وتنتهي بالمقاهي الليلية، في النهار يشعر بالاختناق فينام في غرفته الرثة، وإذا استيقظ قبل الغروب يخرج ليجوب الشوارع والأزقة، يجالس المسنين ويسمع حكاياتهم وفي أحيان كثيرة يصحب للوراقين ويظل يقرأ ويقرأ ليعود أكثر وحشية ورعباً.

نتلاقى في المقهى بدون سابق موعد فأجده يسعل حتى تشعر أنه انتهى تماماً، وفجأة يفيق من سعاله وينظر إليّ بابتسامة منفتحة للمدى.

ـ الحياة موت ماكر يا صاحبي.

ودون أن ينتظر جواباً يردد:

- ربما تتجدد في صورة ما وفي زمن ما

في أحيان كثيرة أعجز عن فهمه فأتركه يهذي بأسئلته، وأظل صامتاً أجتذب دخان الشيشة أتطلع إليه وهو يتصاعد ثم يتلاشى فيصيح

- تطلع، دخان لا ينتهي، يتشطر ويتحول إلى دوائر تتمدد في الفضاء. كل الحياة دوائر لا تنتهي ونحن أجزاء تتشطر وتتوحد بصورة أخرى.

عندئذ وجدني صامتاً ضحك حتى اهتزت كل أطرافه وصمت فجأة وأخذ يجر دخاناً كثيفاً.

بدأت صداقتنا منذ زمن بعيد، منذ أن كنا طلاباً بالمرحلة الثانوية، نتحرك سوياً ونقتعد كرسيين متجاورين. في يوم قال مدرس التاريخ

- التاريخ يعيد نفسه

فرفع يده سائلاً:

- هل يعود الزمن أم الأشخاص؟

فرد المدرس، بل الظروف

ومنذ ذلك اليوم أصيب بلوثة وأصبح يقرأ عن الزمن، وعندما سمع أن السحرة ينتقلون إلى أماكن مختلفة في اللحظة نفسها تعلّم السحر، وضاع عقله بين نتف الأوراق الصفراء ولم يخرج منها إلا للمقاهي

صمت وقف على بوابة المقبرة كان جثمانه يترجرج بين يدي نفر تبرعوا بنقله إلى داخل المقبرة، ثم انتصق يسيح على جانب الدروب مهملاً المكان وحشة إضافية، وصمت عاتر تحركه مخلوقات تحت القبور المترصة في خطوط متوازية وبعض الشجيرات التي نمت على بعض القبور بعشوائية، وريح باردة تخترق العظام عنوة وتنطلق هاربة من فوق الأسوار المتخشخشة.

تحرك القبار حاملاً مسحاته صوب صف مرقم برقم ١٢، كان ثمة قبر ينتظر شخصاً ما ليطلق عليه دفنه ويخبيه في باطنه حبط القبار في داخل القبر ومددنا به بالجثة، تناولها ببرود وصاح بي
– انزل لمعوكي.

تسرع وجيب قلبي، وأحسست بالاختناق وأنني سأقبر معه، دفعني من حصر القبر فزلت على عصعص، أسنده إلى يمينه وأحللت أربطة كفنه وأسندته بتراب متصبخ، هز دعس من تلك التربة وانتشت طبعة آبانت علاً محمراً ذا أرجل طويلة وحركة سريعة، ارتقى سعدي بهمة فشعرت بالرعب، نفضته، وصعدت على عجل، وأغلق عليه القبر.
– أحقاً انتهى عبد الراضي لكل شيء؟

كان معاونو القبار ينتظروني وعندما وقفت في مواجهتهم اصطفوا لحرن وانتظروا أن أمد يدي لجيبي، فمنحتهم ظهري وخرجت من المقبرة حاثاً خطى ودبيب النمل يرتقي مرفقي.

كنت حزيناً حزناً غريباً، ليس على رحيله وإنما لأمر كان يجول بالبال دون أن أقف عليه بالتحديد، لم أستطع الذهاب لأي مكان

عدت إلى البيت. كان يقف أمام عيني بكل التفاصيل وثمة كلمات تتراكض من شفاهه صوب أذني.

- الحياة دائرية يا صاحبي.

عندما بدأت أكتب القصة كان نزيلاً في مستشفى الشهارة، وبدأت صوري تنزل ملاصقة للقصص التي أكتبها، ذات ليلة وجدته يقف على رأسي ساخراً:

- لقد أصبحت كاتباً

مهيب وحصته بعوق، كانت هيئته تنمي أنه للشر قد أتته يد الأمراض العقلية، وقف متزناً حادقاً حد الضحكات بملابس بسيطة مرتبة. أحسست أن وساوسه قد خمدت، وقبل أن آخذ ظني بعيداً، جلس بجواري يحتضن كتفي مردداً:

- إن أبطال قصصنا أحياء في زمن الخرافة وكذلك نحن أحياء بصورة ما في ظرف آخر، كلنا أجزاء لا تتلاشى ونتواجد بصور شتى.

أحسست بالعطف عليه وحاولت أن أبعده عن وساوسه فتبسم بحزن:

- أنت مثلهم تظن أنني مجنون.

*

دأبت على زيارة قبره بين الحين والآخر، فكلما قادتني ظروف الحياة إلى هذه الناحية دخلت إلى المقبرة ومررت بقبره وجلست للحظات، وفي كل مرة أخرج أكثر فرحاً من مضي، ففي كل زيارة

أحس بالنمل الأحمر يرتقي ساعدي.

لم أكف عن زيارته إلا بعد حين، ففي إحدى المرات جئت فوجدت قبره مكشوفاً وعلمت أن القبر يهيأ لاستقبال ضيف جديد بعد أن أصبح نزيله رميماً، بعدها أصبح يزور مخيلتي في كل حين.

※

اشتهرت في المقهى بالنزيل الذي لا يجالسه إلا الورق والحكايات، فما أن أصل إلى مكاني المحدد حتى يقبل النادل بطلباتي التي حفظها من كثرة ترديدي إياها، يضعها أمامي بصمت ويغادرني دون أن نتبادل التحيات.

اليوم لم أكن راغباً في القراءة أو الكتابة فأخذت عيناي تدوران بين وجوه نزلاء المقهى، كانت وجوهاً غارقة في بحور متعددة، ووجوهاً لا تقرأ فيها سوى التعب وفي أقصى الأحوال الصمت، الغياب عن كل شيء.

فجأة لمحته في المكان نفسه الذي ألف الدخول منه وبالحركات نفسها ولكنه أكثر أناقة وتيهاً فتحت عينيّ على اتساعهما وركض فؤادي كما لم يركض من قبل، عبرني بهدوء بعد أن ألقى لمحة قصيرة تهللت بحضرته كأس تحاورني وتصارحني؟

- لقد تأخرت كثيراً.

ابتسم ابتسامته المترددة فبدت ثنيته المكسورة وهو يبتسم ويتناول بي

شهشه أحدهم، وأخذ يجر دخاناً كثيفاً ويطلقه في الهواء، تحركت باتجاهه، وسلمت عليه. كانت عيناه تركضان في وجهي باستغفار كمن لا يعرفني، همس بثقة:

ـ هل من حاجة أقضيها لك؟

أحسست بشيء يجذبني إلى الأسفل، رددت بآلية.

ـ كلنا أجزاء لا تتلاشى وإنما تتوحد بصور شتى

فانطلقت ضحكات الموجودين، وخرجت من المقهى تاركاً شخوصي وأوراقي وثمة ضحكات مستهجنة تتبعني



قصص نبيلة

١

# حين تنبت الصرخة

جميعهم حوله

سار بخيلاء، وبيده ذرع نحاسي صقيل ناعم الملمس ينتهي بحواف حلزونية مذهبة، وقاعدة من القطيفة الأخضر

زوجته تبتسم في وجهه كلما توقف وألقى ضوء عينيه على وجهها البيضاوي ذي الملامح العظيمة كناسفة لمهرومة بتجاعيد قطنت أسفل شفتيها، وتركت ابتسامتها مسترخية كغصن في شجرة مائلة رفعه أبناؤه وهو يسير مختالاً بينهم، يتنقل بهم من غرفة إلى أخرى، كانت غرفة الاستقبال هي آخر الغرف، اختار البترينة التي تحمل التلفاز وجهاز ريسيفر، مخصصاً

– أفضل أن يكون هنا.

–

هزّت البنت الصغرى وهمّت بأن تنتقي جملة إلا أن نظرة أمها ألجمتها فاستكانت بمكانها تتبادل النظرات المرتبكة مع إخوتها

في داخله استحسن ذلك الصمت المهيب من قبل أبنائه،

واستكمل:

– هنا سيراه كل من يزورنا وسيعرفون من هو أبوكم.

استعجل ابنه البكر لتفريغ تلك التربة من محتوياتها المتصوبة فوقها، ووضع الدرع هناك مستجيباً لأوامر أبيه الموجهة:

– لا تضعه في الأسفل. يبدو أنك لست فخوراً به

وجذب ابنه بغضب مفتعل ووضع الدرع في أعلى التربة

وقف أمامه متأملاً موضعه، وابتعد عنه قليلاً قليلاً، جلس في أماكن مختلفة من المجلس تطلع إلى الدرع من زوايا متعددة ويقفز من كل جلسة ليعدل وضع الدرع ويعود إلى مكانه يختلس النظرات لموقعه الجديد ويخاطب أبناءه بصورة آلية من غير أن ينتظر جواباً محدداً:

– هنا هكذا أحسن أليس كذلك؟

ومع كل همهمة كانت رؤوسهم تهتز مستحسنة لموقع ذلك الدرع، صاح مستنكراً

– كل لأمر كن هززتم لها رؤوسكم. لا أحد يركس لأزته الهاوي رقابهم على الدوام.

لم يعلّق أحد منهم على مقولته، وإن أبدت زوجته شفقة على أبنائها

الذين حاروا في ما يعملون، وإن كان أصغرهم أقرب للتمرد على تلك اللحظة الواجمة، فسمرت عينيه به كي لا يباغت أباه بكلمة تعكر خاطره.

أضمر غضبه، واحتضن ابنته الكبرى، مداعباً شعرها بحنان، بينما كانت عيناه تهيمان كرياح وديعة على تلك الوجوه المرفرفة حوله أحس أن أهل بيته الجتمعين ينتظرون كلمة ما، تطلع فيهم للحظات وأعاد نظره للبرعم الذي استقر على الشرفة كتمثال معدني ورمز متحسراً على أيام مضت في البدء كان صوته متهدجاً ثم اعتلى أسماعهم بنغمة شجية، وذكريات كانت تهرب من لسانه كلما حاول الإمساك بها . الشيء الوحيد الذي استطاع أن يهيج به بحزم تلك الجملة الطويلة التي تعرف لحكايات ومراجعات ودروس رغب أن يستوعبها أبناؤه.

أربعون عاماً كنت خلالها مثال الموظف النشط أؤدي عملي بمثابرة كنت أحسن الإصغاء لرؤسائي وأنفذ مقترحاتهم كساعة لا تخطئ الوقت . أربعون عاماً مضت كالحلم.

أحس أنه وقع في شرك الكلمات فعاد للحديث مستدركاً

- لم أكن أهز رأسي على الدوام ولكنني كنت أنفذ ما أؤمر به حتى لو لم يكن موافقاً هواي، فالوظيفة ليست رأياً شخصياً بل نظام وقوانين

يبدو أنه مل من الكلام، أو من مراشق النظرات الجامدة الخفية خلف أنوفه وتحت بارة الصمت، حدق بالفرع مليا وخاطب زوجته بنبرة وديعة

- إنه صقيل كأيام عملي، عليك أن تمسحه دائماً ليظل صقيلاً.

ومن غير أن تنتظر نظرت إلى مكان الدرع ومسحته بثوبها فثار فجأة

- ثوبك مزركش سيخدش هذا اللمعان، ألا تعرفين كيف تنجزين المهام الموكلة إليك بإتقان؟

تمتص ابتسامتها، وترتد لداخلها، ثم انسحبت من مكانها لتعود إلى جواره من غير أن تنبس بكلمة. شعر بالضيق يعتريه، فواصل تهجيه دون أن يرد عليه أحد.

هذه المرة أحس أن الصمت الذي حوله مقبرة تناديه أن يدخلها بصمت يوازي جلالها

≈

تراه جذلاً، إلا أن خاطراً يتمسح بأعماقك ويشي أن فرحته يشوبها كدر

≈

**بعد يوم من استلام الدرع**

لم يكن معه أحد، جلس في مواجهة الدرع، أخذ يقرأ مئات الكلمات المنقوشة بماء الذهب والمكتوبة بخط الثلث

## شهادة شكر وتقدير

بكل الفخر والاعتزاز تتقدم الوزارة بشكر الموظف محمد علي بن يوسف على أداء عمله بكل تفانٍ وإخلاص، وتتمنى له أياماً سعيدة بجوار أسرته بعد أن قضى زمناً طويلاً من العمل الدائب والمخلص بيننا. كان خلال فترة عمله محل الثقة والتقدير من قبل زملائه الذين عمل معهم.

المدير العام

عمر عبدالرحمن البكر

أعاد قراءة تلك الكلمات المصلوبة على اللوح عدة مرات، كان يتوقف عند كل كلمة ويقرأه بحنين، تبادلته خواطره في تداعيات متلاحقة، وابتعدت بعيداً به عن تلك الكلمات.

≈

أربعون عاماً انتهت بلوحة نحاسية

من كتب هذه اللوحة؟ هل كان فرحاً وهو يخط هذه الكلمات أم تم نقلها من ورقة ممزقة نقلها بصورة آلية من غير أن يعرف صاحبها، أو يعرف كم تكبد من أحزان وأفراح طوال سنوات العمل التي أمضاها بين أوراق وصفحات الأرشيف؟

هي شهادة براءة لمن أخرجك من السباق، هي رجعة فرح عامر بعد جلس بجنب الشطرنج لساعات طوال تجري في حروبه لحظات التوتر والترقب، واستطاع بمهارة أن يخرج قطعة أخرى من القطع الباقية والتي عليها أن تغادر مكانها من غير أن يشعر

بها المتناحرون. أنت الآن قطعة خارج اللعبة مقذوفاً كيفما اتفق، منسيّ على الهامش، ربما ستصحبك انتهاء اللعبة لكي يتم جمعك مع القطع المنتصرة والمهزومة لتعود بداخل صندوق مغلق مظلم تحلم بيد تنقذك مرة أخرى، حيث بعث، تمسك بك وتجوب بك أرضية اللعبة. وفي لحظة تقرع رأسك بنشوة الظافرين لتسقط في جوار قطع سبقتك. تتكئ على أي جنب لا يهم. نحن قطع تسير للأمام فقط للأمام وفي أحيان كثيرة تكون حركتنا طعماً للاستدراج وحين ننتهي لا يأبه بنا أحد حتى أولئك المترقبون سقوط الكبير.

أربعون عاماً يقابلها درع نحاسي وكلمات باردة، وأمنيات كسبحة نحن قطع على أي حال، قطع شطرنج، أو قطع حجر تركب داخل صندوق يفرضها فأر مهمته الأساسية الإجهاز على ورق.

كنت مجموعة كبيرة من الذين الذين طوحوا بها خارج اللعبة، ولكي يبدو ذوي قيمة فقد تم إقامة هذا الحفل، ولم يحظ بالتكريم سوى عدد محدود بعناية قررت الوزارة منحهم دروعاً تذكارية ومبلغاً مالياً بكفاءتهم خلال عملهم الطويل، بينما تلت البقية الباقية مجرد أسماء وأرقام تحتفت منهم الوزارة بطوحهم إلى التقاعد، وإن كنت قد سمعت من وكيل الوزارة حديث استرقته أثناء مروري خلفه في إحدى المرات التي تواجدت بها في الطابق الذي يوجد فيه مكتبه وكان يوجدي هناك لإنهاء أوراق التقاعد. سمعته يقول لمرافقه

– لقد ارتأت الوزارة تكريم النجباء من أبنائها بينما الخاملون والتافهة يكفيهم تحمل الوزارة لهم كل هذه

السنوات الطوال وكان الأجدر بهم طي تهميشهم من زمن طويل، ولو كنت وزيراً لمنعتهم من استلام الراتب التقاعدي.

هذا القول جبر خاطري، وهوّن علي تلك المشاعر الخانقة التي لازمتني منذ أن عرفت بإنهاء خدماتي، فتكريمي واصطفائي من بين تلك الأعداد الغفيرة بالتكريم هنا اعتراف يمنحني الرضا بقية العمر

كانت زوجتي أكثر فرحاً مني بهذا التكريم فقد جهزتني، منذ وقت مبكر، وأحسنت هندامي كما يليق بعريس يستقبل حياة جديدة، ورشّت عطوراً على جسمي وثيابي، ودارت بمجمرتها وهي تطلق الزغاريد ولم تستجب لزجري:

– يا مرة.. أنا ذاهب لحفل التقاعد وليس لاستلام منصب الوزير.
– ومن يكون الوزير.. أنت أفضل من مائة وزير

وودعتني، وعيناها تشعان بفرح بكر

– عد سريعاً.. فالأيام القادمة أنت لي وحدي.

هناك، في قاعة الحفل اصطففت في المقدمة، كانت معظم الأفواه تبتسم، مؤجلة غلظة الوجوم والوداع إلى ما بعد الانتهاء من فقرات الحفل، كلنا كنا مرتدي البياض (الثوب والغترة) قلة منا التفوا بالمشالح وقد وجدت نفسي في حالة مرتبكة بذلك المشلح الذي أخرجته زوجتي من دولابها وهي تضاحك

– أتذكر هذا المشلح؟ إنه المشلح نفسه الذي لبسته في ليلة عرسنا.

تلفتُّ يميناً ويساراً. كل المتقاعدين يمنحون شيئاً من الحرارة، فلحظات الفرح لا يمكن لها أن تظهر هكذا

حينما شد المدير العام على يدي كادت تطفر من عيني دمعة مالحة، دمعة بحجم ذلك الجهد الذي أمضيته داخل غرف الأرشيف، كنت أتمنى أن أقول له:

— بلى، مازلت قادراً على العمل.

كنت أتمنى ذلك لولا نداء قديم نهض فجأة بسبب سقوط تاريخ طويل من الأنفة ورثتها عن مزارع عتيد، كان منشغلاً بعدم ابتسامته والتي حاول جاهداً أن يبرزها بوضوح لكي تختلسها تلك الكاميرات المتابعة لبرنامج الحفل. شد على يدي وأطلق ابتسامته، وحين غادرته الكاميرا استعجل إزاحتي من أمامه

كنت أول من نهض، فبمجرد أن ذكر اسمي الأول حتى قمت مستعجلاً، وكدت أن أتعثر في طريقي حينما صممت خطواتي المرتبكة المشلح المسبل على قامتي، وعقدت به يدي وثنيت بالأخرى محتضناً يده بحرارة إمعاناً في التودد، وأوشكت أن أقبل يده لتحدث الابتسامة الصافية التي أطلقها في وجهي، كنت أظن أنه خصني بها دون الآخرين. وبعد أن استلمت درعي واستكنت في مكاني المخصص وجدته يوزع تلك الابتسامة على جميع من يصعد من الزملاء، انطفأت حتى إذا ابتعدت الكاميرات تجهم وجهه وعاد نيئاً حرباً معلناً بذلك العبوس المشع بين حاجبيه وصفقه المبرم عمن صعد للسلام عليه.

**بعد يومين من تسلم الدرع**

استيقظ كعادته، وجد أن الجميع منشغل بالذهاب للعمل والبعض الآخر للمدارس وزوجته نائمة.

خرج إلى الشارع وعاد بصحيفته تمنى أن يرتشف كأساً من الشاي. تحرك لإيقاظ زوجته لكنه أشفق عليها فتركها تتمطى في فراشها كقطة حالمة. دلف للمطبخ وأعد إفطاراً يابساً (عيش وجبن وزيتون وشكيدة مخللات) وجاهد في تجهيز كأس شاي، انتهى من قراءة صحيفته وقام بأعمال عديدة رتب أوراقه القديمة، نظف أواني المطبخ، أصلح أسلاك الكهرباء المعطوبة، رتب أسرة أبنائه، مازال ملل يعتريه من كل جانب، اصطف على الدرع مروراً، حفظ الكلمات المكتوبة عليه، تحرك في كل الغرف ووجد نفسه يحصي عدد البلاطات التي تغطي غرف بيته الخمس ثم انتقل لإحصاء عدد السلالم التي توصله بيته يومياً. وكم كان الرقم مدهشاً حينما اكتشف أنه وطئ كل سلم ما يزيد على ستة ملايين مرة (وصل لهذا الرقم بمسألة حسابية بسيطة أعانته للوصول إليها آلة حاسبة كان يستخدمها لتوزيع دخله الشهري).

صدمت زوجته عندما استيقظت ووجدته يمسح أرضية الممر المؤدي للمطبخ، ملقته بضربة على صدرها

ـ لا عدت يا أمر الغالي.

وانكب على يديه تقبلهما وتخلصهما من تلك المسحة التي اصطبغت بألوان حالكة. كانت ابتسامته مشتتة أقرب للارتباك

ـ لم أجد شيئاً أعمله!!

### بعد خمسة أيام من استلام الدرع

الهاتف يرن، تمتد إليه يد روجته، تضع السماعة على أذنها وتلمع عيناها بفرح

- محمد الوزارة تريدك.
- (أوه الآن تذكروا هدية تركي للفصل! كنت قد تعمدت باشمامي بالبقاء على رأس العمل لسنتين قادمتين، أجد علبتي مع عدار مهذب، فهل ترجعوا عن العزم للتسرع في حقي؟ لقد عرفوا قدري بلا شك).
- ماذا بك؟ لماذا تبدو جامداً؟ أقول لك الوزيرة على الهاتف

تناول السماعة وجذبها إليه محرضاً إياها أن تلصق خدها لتسمع اعتذارات الوزارة بعد أن وضع يده على سماعة الهاتف

- (الآن ستسمعين مقدار ما تركته من فراغ. كنت جازماً أنهم سيحتاجون لي).

لكزته وهي تستحثه:

- ردّ على الرجل قبل أن يصيبه الضجر
- ألصقي أذنك معي لتسمعي

رفع يده من على السماعة وأصدر نحنحة مصطنعة. حاول أن يبدو صوته رصيناً قدر الإمكان:

- أهلاً، أهلاً
- أهلاً بك، كيف الحال؟
- جيد

- نحن نعتذر بشدة.
- لا عليك. كنت أعرف أنكم سوف تقصدون
- حدث لبس بسيط وأنت خير من يقدّر
- أعلم تماماً ما قد يحدث، وأنا متجاوز مطيب خاطر عن كل خطأ.
- هذا ما عودتنا عليه، وأنا مكلف أن أعتذر لك بشدة.
- يا رجل لا داعي للاعتذار.
- إذاً سنرسل أحداً لاستلامه.
- . ..
- اتفقنا
- استلام ماذا؟
- الدرع.
-
- أنت تستحق مثله . لا، لا بل تستحق أفضل منه
- .. . ...
- لقد حدث لبس.
- لبس؟
- نعم فالدرع لمحمد بن علي يوسف زميلك بالمالية أنت مقدر هذا الخطأ بلا شك، فالأسماء متشابهان ونحن مقدرون صفحك.
- .
- أما بالنسبة إلى المكافأة المالية، فقد تقرر خصمها من راتبك التقاعدي.
-
- الآن يهمنا إرجاع الدرع، متى تحب أن يصلك مندوبنا؟
- ..

- يصخب كدرع غاضب وأغلق عينيها الدنيا. لقد بلغت شكواه للوزير.
- 
- ما رأيك أن يصلك مندوب الآن؟
- 
- أرجوك، لابد أن نستمعه اليوم قبل أن يصل معقب الوزير
- ...
- سوف أبعث مندوبنا الآن
- ...
- لماذا لا ترد؟
- ...
- أتسمعني

صرخة أنثوية مصحوبة تبث في فضاء الغرفة لجسد يرتمي في جوارها متخشباً

## الممر

في الممر الطويل أسندت جذعي بيدي بينما كان نظري مشتعلاً بأعقاب السجائر المرمية على البلاط... 

في الممر الطويل أسندت جذعي بيدي بينما كان نظري مشتعلاً بالمعلقة تحذر من التدخين، وثمة خاطرة تعبر مخيلتي

- إنهم يعلقون هذه اليافطات ليمنعوا من التدخين وإحراق صدورنا لتدرك تلك المهمة لهم. أليس من الأجدر أن نقوم بإحراق صدرك بدل أن يحرقه الآخرون؟ وبالية، أدخلت يدي في جيبي وتناولت سيجارة وأشعلتها ببطء مستنشقاً قدراً كافياً من الدخان وضغطته لتناقص حتى شعرت أن أوردتي تشبعت وأن رئتي اختنقت في فيه الكتابة تلك اشتعالاً أحسست به يموج في صدري، ذلك الاشتعال الذي حولت إخماده بسعال ممتد، ولم أشعر بالاستمتاع إلا بعد أن سربت كومة كثيفة من

الدخان صوب تلك البقعة وأدرت بها ظهري ملقياً
بصري في ذلك الممر الكئيب.

كانت ثمة ممرضات يتطلعن باتجاهي وألسنتهن تقذف كلمات
مصرية لم أفقه منها شيئاً، وحزرت أن سبب نظراتهن العدائية
مبعثه دبق الدخان المتصاعد من فمي المصحر. لم أعبأ بهن فقذفت
ببصري بعيداً عنهن وإن كانت بي رغبة مبادلة عيونهن الصفقة تلك
النظرات العدائية، فأعرضت عنهن خشية أن ينشب بيننا شجار فلا
أقدر على أخذ حقي من امرأة. ألصقت سيجارتي بفمي ومررتها مرّاً
قوياً محاولاً إعطاءهن ظهري، وقبل أن يكتمل استدارتي لمحت
إحداهن مقبلة نحوي ولسانها لا يزال يعطرني بتلك الكلمات
الحجرية. اقتربت مني فنفحت منها رائحة عطر رخيص، كان فكها
يعلو ويهبط بالكلمات دون أن أعير ما تقول، وعندما أشارت إلي
بإطفاء السيجارة حرت وأخذت أبحث عن مكان لإطفائها وقد زاد
من ارتباكي أن المتواجدين تقاربت عيونهم باتجاهنا وأخذ بعضهم
ينظر إليّ بازدراء. كنت أود افتعال شجار مع رجل عبرت وقذفني
بنصيحة لم أفهم منها إلا أنني قبيح للسلوك. كانت تلك الممرضة لا
تزال (تبرطم) وأنا لا أزال حائراً أبحث عن مكان مناسب لإطفاء
سيجارتي. كان الممر لامعاً لا يوجد فيه طفايات أو شعلات يمكن
أن أضع بها هذه السيجارة اللعينة، وفكرت بقذفها في الممر وفركها
بأسفل قدمي لولا أن تراجعت خوف بلاط الممر اللامع
والمفروش في إحدى جنباته ببساط عالي النقش ومزين بلوحات
جدارية، وبعض اللوحات الزاهية ذات التواقيع المختلفة. كانت هيئتي
تدعو للضحك، فحيث كنت أسير كانت تلك الممرضة الغبية
تتبعني بعطفاتها التي لم أفهمها والتي جعلت بعض النسوة يتخلين
عن وقارهن ويضحكن بصوت مسموع، ولم أجد بداً من فركها

بين أصابعي متحسلاً لسعاتها الحارقة، ومتذكراً تلك التعذيبات التي كنا نقوم بها من إطفاء السيجارة على جلودنا في بدء تعلمنا شرب الدخان. ولم تكتف تنث المرضة بهذا الفعل ولم تتركني حتى وضعت سيجارتي المنطفئة بداخل جيبي، لترتفع ضحكات من كان يتابعها، وتركتني بعد أن سمعت كلمات يبدو أنها درس في السلوك العام. بعد أن غادرتني استندت إلى جدار الممر حاضناً عصاي الأعمى بيدي ومقوساً إحدى رجلي كمن يهم بتنهيد عقاب صارم. في هذه اللحظة رغبت فتاة من آخر الممر كانت تمشي بريبة متقدمة وتتطلع نحوي لا تحيد عني، وكلما اقتربت حدقت عينيها بوجهي حتى إذا وازتني رعبت (بيشتها) ودققت النظر في وجهي وكأنها تبحث فيه عن شيء ما، وظلت لبرهة تحدق بي. كانت عيناها السوداوان تنتظران شيئاً خاصاً عجز وجهي عن إمدادها به، وعندما رأتني جامداً كالجدار الذي استند إليه صكت وجهها وعبرتني كرصيف متهدم.

حينئذ أحسست رغبة في اقتفاء أثرها، فجذبت رجلي المقوسة وأطلقت سراح عصاي الأعمى الذي كنت أحضنه ببلادة، وربما امتدت يدي صوب عثرتي لإصلاحها، فالذي أذكره جيداً أنني مصصت طرف عثرتي وسوكت به أسناني الصفر، بعنف حتى لم يعد ثمة زبل يساعدها على الانزلاق بين تلك الأسنان العريضة، ورفعت جذعي المائل من على ذلك الجدار وتبعت خطواتها المتثاقلة البطيئة. كنت أسير خلفها على مهل، مستمتعاً بعدم اكتراثي بها ومتطلعاً بلافتات العيادات المتناثرة على امتداد ذلك الممر. أحسست بوقع أقدامي خلفها، فتباطأت، فتسمرت في مكاني. كنت حانقاً وحائراً، يعصرني سؤال حاد لم أجد إجابة عليه:

- لماذا الخوف حينما نسير خلف رغباتنا؟!

كان سؤالاً ساذجاً سقط عند التقاء هبيب حيث شبت ابتسامتها العذبة، ومرت جانباً تعبث بحقيبتها اليدوية وتقطع صوتي بحذر. ترنحت شجاعتي حيث خطر ببالي أن شخصاً ما يتبعنا، فأسندت جسمي بجوار عيادة «الباطنية» وشعرت بحرقة من تلك العيون التي وجدتني أمامها تنشغل بوجودي للحظات كاسرة ملاله الانتظار، حين هتفتي وقد نوقف أغلقت حقيبتها بحنق وواصلت عبور الممر، فتجاسرت وتبعتها، شعرت بالغيرة تلدغني حينما رأيتها تحمل النظر صوب شاب كان يذرع الممر ذهاباً وإياباً ممسكاً نصفه الأعلى بيديه، فباطأت خطواتها، ورمت صوتها متسائلة

— ألا يوجد هنا هاتف؟!

وعندما رأته مقبلاً نحوها، أسعرت عن وجهها، فلمحت الشاب يرفع عمله ويعيد إصلاحه، فسمعتها تهمس به

— كدت أن أقع مع حمار كان يحضن نصفه الأعلى بيديه

فرد الشاب وابتسامته تقول:

— ألم تتفق على إشارة العقال.

— كنت أنتظره أن يحملها بكنه ظل يحدق في وجهي كثور أبله،

ثم جذبتها من يدها صوب المقعد

— تعالي إلى هنا قليلاً

— لا .لا أستطيع أن أتأخر فأبي ينتظرني بالخارج، يكفي أنني رأيتك ودع الجلوس لوقت آخر

وألقت بين يديه مظروفاً له لون طرحتها، وعادت تتهادى كسحابة يانعة. استقدمت عيناه لنبرة الثانية فأسرعت أعصر بعيني المترددة:

ـ سنحت لك الفرصة فلا تفوتها

صفقت بصري بوجهها، وحدثكم بباقة ـ كما كنت أتصور ـ

ـ سيدتي، يوجد هنا خالف.

انحرفت عن مواجهتي ورمت صوتاً غليظاً

ـ (انطلق)

وواصلت تهاديها بدلال، جارة رائحة عطرها الفاخر خلفها، وقبل أن التفت لمواصلة تتبعها جرفتني قهقهة عالية كانت لشاب يحمل مظروفاً ـ بدون الزعفة، فأحسست بتضاؤل أمام ضحكته المرتفعة وأمالته المهيبة، فأسندت جذعي إلى جدار لدمر وتخرجت سيجارة وأشعلتها جدراً مصاً عميقاً لأسكت سعالي الذي ك عجلة، وحين تمت تلك الفرصة مميلة باتجاهي وهي تمر بكلماتها الحجرية، أحسب أركض صوب بوابة الخروج.

رجب ١٤٠٨



# الحل الوحيد

لم يكن يدور بخلدي كيف يمكن أن أشرح له بما أحس حيث كان يعبث على جسدي الهزيل بقبضته الفارعة، وقد أسقط بحلقي ملعقة خشبية ويبي اخوي والأخر يأمرني بأن أخرج صوتاً أشبه بالاستفراغ، قول "آ" وقد سمعتها مني مرار، ففي كل زيارة أذهب إليه يجعلني أضطجع على ظهري بعد أن تكون ممرضته قد أحدثت مياساً طرطوتي، وصمطي، وورني، ولا يعود متثلبا عنه سوى تمرير سماعته على صدري وعرس نفث الملعقة الخشبية أسفل قدع فمي. وكان يحدث هذا مع كل طبيب أصله، وأحرج وأن لا أزل أعاني من مرضي العريب حتى أن كثيراً من الأطباء دعوني لزيارة إخصائيين نفسيين، وهؤلاء بدورهم أحالوني على أطباء عصبيين، وكان آخر مطافي عند هذا الدكتور الذي راق لي، ففي أول زيارة أجلسني أمامه، وأمطرني بالأسئلة بينما كان يدون كل ما أقول في (نوتة) صغيرة، قلت له

- أشعر بحرارة تلازمني أينما اتجهت. وبعد فحوصات، وتحاليل، وأشعة مقطعية وطولية، وملونة، لاطمئني بود
- أنت لا تشكو من شيء، ألا تستطيع أن تعود على هذه الحرارة؟!

رددت عليه بعجز:

- لا أستطيع أبداً يا دكتور، فهي تتسبب في دخلي بحرارة، وتحول حياتي إلى كابوس

حاول التخفيف علي:

- لا عليك، فكلما شعرت بها تناول قطعة سكر وأذبها بحلقك.
- لقد بلعت من السكريات أكياساً تجعلني بحراً سكرياً، ومع كل هذا فالحرارة التي أحس بها تزداد، وتتدفق في حلقي بحرارة بل على العكس، فكلما أذبت من فمي شيئاً من تلك السكريات سالت الحرارة في كل أجزاء جسدي حتى أشعر أن شعر بشرتي يستنشق هواءً مراً.

وخرجت من عنده بعد أن أوصاني بملاحظة حالتي ومتى تقل الحرارة. ومع تكراري المجيء إليه بدأ يشعر بالسأم والضيق من حالتي التي لم يفهمها. كنت أحس بذلك دون أن أجرؤ على مصارحته بما يختمر بداخلي، وهو أن أضطجع على ظهري، ولا أعرف كيف أشرح له بم أحس بعد أن استنفدت كل الطرق الممكنة لشرح حالتي. أجهضني من رفقتي تلك، وتبسم في وجهي

- كيف هي الحرارة (معك) الآن؟
- أشعر بأن عمي يحترق من مرارة تغوص كنهر لا ينضب
- ألم تلاحظ متى تحلق؟

عصرت ذاكرتي، فاستحضرت تلك اللحظات على الحيرة، وبعد جهد وتركيز تذكرت بأنه تلاشى بمجرد أن أذكر الموت، فصحت به

- نعم، أشعر بطعمه يزول من فمي كلما تذكرت الموت، أو فكرت فيها

قفز من مقعده صائحاً يفرح:

- هو الحل الوحيد.. نعم هو الحل الوحيد!



# غيـــاب

وصله إخطار من المدرسة بتغيب ابنه لأسبوعين متتاليين، فأصابته الدهشة، وتوجه إلى إدارة المدرسة مستنكراً، وهو يخاطب المدير متسائلاً:

- كيف هذا؟
- كما ترى.. فابنك متغيب عن المدرسة منذ أسبوعين.

احتدّ الأب صارخاً:

- ولكنه يخرج يومياً حاملاً شنطته، ويتجه إلى المدرسة بسعادة بالغة، ويتكدر كثيراً من يومي الإجازة
- قد يكون هذا صحيحاً لكنه لا يأتي إلى المدرسة

أخذ المدير يحدق بالأب المذهول، ولشعوره بأنه غير مصدق أردف

ـ إذا أردت أن تتأكد من صدق قولي فاذهب وانظر في جميع فصول الصف السادس ولن تجده.

عاد الأب إلى البيت حائراً في ما يصنع، وبعد تفكير عميق قرر أن لا يفاتح ابنه بما علم، وأن لا يشعره بشيء البتة.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ فوجد ابنه متأنقاً، ومتجهزاً للخروج، فتركه يمضي وانطلق أثره.

كان الصغير يسير في ممرات متشوية ويعدل بين لحظة وأخرى إلى إصلاح هندامه وفي بعض الأحيان يخرج مشطاً من جيبه ويسرح خصلات شعره القصيرة حتى إذا بلغ المنعطف الذي يؤدي إلى مدرسته تجاوزه وانحنى يثب ليتسور جداراً قصيراً ومد يده لاقتطاف وردة حمراء تدلت من غصن شجرة أحد البيوت الضخمة، وسقط على الأرض بتوازن إنسان تدرب على هذه الحركة حتى أتقنها، وأخذ يصلح هيئته نافضاً التراب الذي علق بثوبه ومعيداً تسريح شعره للخلف، وعندما رضي بهيئته حمل حقيبته وتباعدت خطواته حتى إذا بلغ إحدى البوابات توقف بجوارها، وأسند حقيبته إلى جدار تلك البوابة بعد أن أخرج منها منديلاً أخذ يمسح به وجهه ورقبته باهتمام، ووضع الوردة بيده اليمنى منتظراً في مواجهة تلك البوابة. مضت لحظات قصار، وصرّ الباب صريراً ثقيلاً لتبرز منه فتاة ترتدي (مريولاً) يشي بأن صاحبته طالبة بالمرحلة الثانوية وعندما أغلقت تلك الفتاة الباب تقدم منها الصبي، وناولها تلك الوردة، وحمل لها حقيبتها، وانطلق يسير أمامها، وعيناه تحدقان بشرر إلى كل عين تحاول اختراق (بيشة) تلك الفتاة، وفمه يطلق سيلاً من الشتائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقها،

حتى إذا بلغت باب مدرستها ناولها حقيبتها، وتبعها بعين متلهفة حتى غيبتها بوابة المدرسة عنه، فقفل بشنطته جانباً، وجلس بجوار (حجة) كانت تبيع لوزاً سودانياً وحمصاً، ومصمصاً، و(سحبوبة)، وعيناه لا تملان من التحديق بتلك البوابة العريضة المصفقة، وكلما تباطأ الوقت زادت حركته توتراً، وكثرت التفاتاته، وقد أمضى وقته باللعب منفرداً بألعاب شتى، ثم اتجه إلى شجرة سدر وأخذ يقذف حبيباتها الناضجة بالحجارة دون أن يكتفي بجمع ما تساقط، حتى إذا مل انطلق الى أحد الدكاكين وعاد يحمل مشروباً بارداً لم يكمل شربه، وتبرع بالجلوس بدلاً من تلك (الحجة) المجبور تتعب زمناً من الوقت وتعود لتترك لها بضاعتها وبعض النقود البسيطة التي باع بها خلال غيبتها، وينطلق ركضاً في دوران محموم حول سور المدرسة حتى إذا تجاوز النهار منتصفه، وزعق جرس المدرسة معلناً انتهاء اليوم الدراسي تحول نشاطه وتسمر أمام تلك البوابة يحدق بالفتيات الخارجات، وإذا أطلت تلك الفتاة من بوابة المدرسة ركض باتجاهها وحمل عنها حقيبتها، وانقفلا عائدين، وقد أطلق لسانه بالشتائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقها!!

# غـزل

سيارة فارهة ووجهان صقيلان تمور فيهما الصحة والشباب، وعطر مشاق، وروائح ناعمة تغادر سيارتهما صوب الشوارع التي تقطعانها في مطاردة المعالم السوداء.

وكانت ثمة فتاة تسير وحيدة، وكيف خطت هزّت بخطوها العيون، والأعناق، فلها مشية حمامة، وقد تتلوى، وكسمل كغصن رطيب، تدك بمشيتها القلوب، وتمضي غير آبهة بما أحدثت من تأوهات وغير مكترثة بكلمات الغزل التي كانت ترشقها بنوعة.

سارا بجوارها، وخففا سرعة سيارتهما حتى غدت تتدحرج أحدهما أخرج رأسه من النافذة وأطلق لسانه بجرأة

ـ لم أحسب أن القمر غادر السماء

جمجمت بدلال، وخطت برشاقة، وهي تداري ابتسامة كاذب كتموج، وتستحيل إلى ضحكة، وانحطت إلى شرح أكثر اثرواء.
تبدها:
– (تمضي موصلك إلى آخر الدنيا إن أردت).

التفتت نحوهم، كانت عيناها ـ من خلف (الشباك) ـ مغرية بالسير خطفها حتى بلوغ حقود العصب.

ضرب السائق مقود السيارة بعنف:
– (يوه اقرفني بين هذه الأعداب)

نبه الشبان لوجود مجموعة من أهل الحي يتباسطون أمام إحدى البقالات، فأسرعا بتجاوزهم، واستظراف غير بعيد حين سبقتها والتحقتهم. أحدهم كان يترقب مخرجهم من خلال المرآة، وهي تتهادى كموجة كسولة، عبرتهم ببطء. همس.
– لو تصمين بأنك ستمرين على دمي وتد.

ولم يستطع إكمال جملته بعد عدت أبعد من الهمس، فخرجا السيارة في أثرها، وقذف أحدهما بورقة صغيرة باتجاهها، انحنت، والتقطتها بخفة، وواصلت سيرها.

قال أحدهما بنشوة منتصرة:
– (لقد ضمنت الصنارة).

مسح السائق لمة تقافزت من جبينه، وترك عمه يطلق ابتسامة ماسحة، ورقة بحبث

ـ (اسحب الحلب يهدوء).

سبقاه، وترجل أحدهما فاتحاً لها باب السيارة
ـ لا بد من إيصالك!

رفعت الفتاة صوتها ـ تخالطه ضحكة مكتومة
ـ (طيب يا محمد .سأخبر أمي)!

تهاوى فجأة، وكتم دهشته بوضع يده على رأسه بذهول، وركب السيارة حاثاً رجله على الانطلاق، وهو يصيح بحنق.
ـ مصيبة.. إنها أختي!!

وانطلقت السيارة، تفرص الرمل وحبيبات الحصى تتقاذف بعنف، وصمت رهيب يسيل بينهما



٦

---

# إمــــلاء

في أول يوم دخلت فيه إلى المدرسة صفعني وجهه.

كان يحتكم على وجه صحراوي عابس القسمات، عصي البسمة، شحيح الطيبة. له شارب كث، وعينان مزروعتان بكتاب الإملاء، وصوته الجهوري ذو الصرير الحاد ينحر رأسي بعصرة. يتبختر في الفصل، وعصاه تهتز متحكمة قلوب الصغيرة. يدور بين طاولاتنا، ويملي علينا ونحن نكتب، ونكتب، ومع كل قطعة إملاء، كانت ثمة عصا تتكسر، ودموع تتناثر، وخوف يسيل من الأفئدة. يكفي أن تخطئ خطأ طفيفاً حتى يثور، ويحمل حظك بعصاه الرنانة التي ما أن تلامس جلدك حتى تبلله بالدم.

وقف في مقدمة الفصل وأطلق صوته

ـ كان شهماً فارساً..

وعندما حدّ بصره في كراستي صعق. ورفع صوته غاضباً
ـ سيسحر ما كتبت هذه الحمار (كان سحيهاً ماجداً..).. أهذا ما تفوهت به؟

فجلجلت تلك الأصوات ثمره:
ـ لا يا أستاذ

فشدني من شعري، وأوقفني بجوار السبورة آمراً إياي برفع يدي وقدمي اليمنى.

في البدء أضعت حرفاً، وتعبت من الوقوف، ومع الأيام أضعت جملاً ولم أتعب. كنت قبل أن يمرر بصره على كراريسنا أخرج وأقف بجوار السبورة رافعاً يدي وقدمي اليمنى. ثم تبعني الآخرون حتى وقف الفصل كاملاً. تعطر وجهه بالبشر، وتضرع إلى وجوهنا بمكر
ـ جميل أن تؤدبوا أنفسكم

ساعتها شعرت بأنني في حاجة لأن أريح قدمي، فأسقطتها بعنف على صوته. حينها ارتفعت عصاه على هامتي ليتقطر دمي على حذائي الأبيض.

## المضطجع

كنت أضطجع على سريري وأئن بتذمر مبتذل، وقد بلغت حداً من القنوط يجعل الحياة تتسرب من عروقي كما يتسرب الماء من شفاه طفل، ولم أكن لأصل بهذه الدرجة من التهاهي لولا أنني قد لمحت اليأس بادياً على محيا طبيبي المعالج، ذلك الهلمّي الذي حاول تخفيته خلف ابتساماته الرقيقة، فيمرو من بين أهدابه كجريان ينبوع صغير يصب في داخلي ويجرف كل طمأنينتي (طمطيته) الخفيفة على كتفي، وكلماته المشجعة التي كان يذرفها على مسامعي كلما وقف لمعاينتي كانت تؤكد بلوغ اليأس إلى مهجته

ـ لم يعد أمامك إلا أيام قليلة، وتغادر،

كنت أفهم هذه الجملة تماماً فهي مواساة مبطنة أو تعزية مبكرة وإن كانت تحمل أملاً عاثراً في إمكانية أن أعود حياتي الطبيعية، فقد

كنت أعلم أنها أيام قليلة وألتحف بالتراب، والصمت، وأنسى هذا العذاب المرير الذي أحياه منذ أمد بعيد. بعدئذ غدت الحياة في ناظري أصغر من هسهسة طوّحت بها الريح، فلم أعد أكترث بشيء، وقد أطلقت كل شيء: لحيتي، أظافري، شتائمي، وتحدّي للقذارة، وتذمري الذي لا ينضب إلخ. وربما للمكان من بهجتي، حيث يذكرني بصمت القبور الخالد، فلم يكن يشاركني هذا العنبر الواسع سوى عجوز أكل السرطان نصفه الأسفل، وأخذ السرطان يقضم نصفه الأعلى بتؤدة بينما هو لا يزال يعتني بنفسه وكأنه مقدم على حفلة عرس، فقد كان يدعو الممرضة لتشذب له ذقنه وشاربه، أو أن تقلم أظافره، وعندما يستكمل زينته، يدعوها لأن تصب عليه عطر الليمون، وكان لا يتحرج من غمز إحدى الممرضات أو ممازحتهن ودعوتهن لأن يقترن به، وأقسم أنه يستطيع مناكحة أربع نساء في وقت واحد. وأمام تبجحه الساخر لم تكن الممرضات يبدين تذمراً من سيب لسانه، حتى أن إحدى الممرضات أصبحت تدعوه بعريس المستقبل فيسعد لذلك ويهش في وجهها كلما أقبلت أو أدبرت، ويحلق في مسامعها كلمات الغزل المبتذل الذي يستحي أن تسمعه من مراهق.

وكان يستقبل الأطباء والزوار بنكتة لا تنتهي، ويسرد على مسامعهم أماني مبهجة لا يرقى إليها طموح من يركض بأوردة خيالة جامحة، وكان يسألهم دائماً عمّا يجري في الخارج، ويطالبهم بتزويده بصور النساء، والشوارع، والحدائق. كان يصاحبني بطلباته الغريبة، فقد دأب على رؤية الشروق والغروب كل يوم، ويثور ويزمجر إن تلكأت إحدى الممرضات عن أداء هذا الدور، لذلك كانت معظم الممرضات يأتينه في مثل هذه الأوقات ويقدنه بعربة إلى حيث تشرق وتغرب الشمس. وقد يزداد دلاله ويطلب

رؤية اكتمال البدر حيث يجلس في مواجهة نافذته المشرعة على الغصن ينظم قصائد للقمر والحياة، وعندما يعود يصافحني بإنشاده الركيك مكثت أستمع إليه بملل، وقد يمنع الضيق مني مبدءاً أكتمه فيه أن أقدمه بما يحاورني، فأتراجع حينما ألحه مقذوفاً في سريره كعود متيبس ليس به من حركة إلا أثر الريح العابرة نثيثه، مع هذا لم أتراجع عن الصراخ بحدة في وجهه مطالباً إياه أن يكف عن مصاباتي . في ذات يوم صرخت فيه بحنق بغيض

- ألا تستحي؟ لم يعد بينك وبين القبر سوى شبر،
وأنت لا نزال معلقاً بهذه الحياة، وكأنك بيت هرم
بكابر دقات معول قاسي.

كان وجهه خالياً من أي معبير مراد من غيظي . أكسلت بروح تبحث عن إيقاع

- أرى أن الخير وكل الخير لنا أن نرقد بسلام كي لا
نتعب الموت وهو ينزع هذه النفس التواقة للحياة،
والمتشبثة بها كقرادة حقيرة.

وعلى غير ما أتوقع انفرجت أساريره وضحك بعمق، وعقّب
- لا يزال ثمة عرق ينبض فلم لا أستمتع بهذا الجمال؟

صحت حتى أحسست بألم يتسدد في حنجرتي
- أي جمال وأنت على ما أرى؟
- وماذا ترى؟

أدهشني بروده . وقبل أن أواصل صراخي استوى مارداً نصفه الحي بابتهاج، ومردداً:

ـ نظر، لا أزال أتنفس، وأرى، وأشم، وأسمع. نعم ما زلت أتمتع بالحياة.

وعندما بلغ بي التعب مداه، طلبت منه أن يهجرني، وأن يقطع حديثه معي بتاتاً، وأن يتركني أتمتع بانتظار الموت كما أشتهي!!

بعدها لم يعد يحدثني، وانشغل بغرسته التي كانت تجاوره، والتي أصر على أن يكون لها حوض. وما أن نهضت بساقها قليلاً حتى تمادى بإصراره على أن تمتد جذورها في الأرض بدل أن تظل في (أصيص) زجاجي يحجز نموها قبل أن تثمر. وأمام هذا الطلب الذي أحال المستشفى إلى ضجة يومية لا تنتهي استجاب مدير المستشفى لطلبه، فشقت عدة بلاطات من الممر وغرست مكانها جذور تلك النبتة، فظل يتعهد برعايته في كل لحظاته، فأخذ يملي نصحه (للحي)، ويسكب عليها الماء، ويزيل ما يتجمع حولها من حشرات ـ على حد زعمه ـ وقد افتعل خصاماً مع إحدى العاملات واتهمها بأنها تعمل على إماتة نبتته وأمعن في تهامه حين وصمها بالحسادة وافتقارها للأمانة والشعور بالمسؤولية وهددها بأن يشكوها لمدير المستشفى إن لم تقم بتنظيف الممر يومياً وتجنب نبتته مخاطر الحشرات، وقد استجابت تلك المسكينة لأوامره فكانت تحضر يومياً لتنظيف الممر وجلب الماء الكافي لري تلك النبتة التي نهضت وأخذت في النمو للأعلى. ويبدو أن سبب استجابتها لأوامر هذا المستبد هو ما كان يحدثه من شغب ينتهي بمراجعة مدير المستشفى لطلباته، فقبل أسابيع طالب إحدى الممرضات بأن تنزل سريره إلى مستوى الأرض حتى يكون قريباً من جذور نبتته، فزجرته الممرضة بعنف مما جعله يحدث شغباً وصراخاً انتهى بأن أمر

مدير المستشفى بأن يساوي سريره بالأرض، وأن يخصم من راتب تلك الممرضة التي استهانت بهذا الحرف.

كانت الأيام تمضي رتيبة مملة تفوح منها روائح الأدوية والعطر الرخيص العالق بثياب الممرضات، وكان للصمت حضور دائم، فهو التابع الوحيد في ممرات هذا المستشفى الكبير يجهر دائماً في كل حين ولا يتركنا طرفة عين، وإن قهقهت يوماً إحدى الممرضات بوخزها بإحدى إبرها المسمومة لتصعب في يوم طويل، ستحتفظ أكثر احتراماً بهذا الصمت المهيب وأن تعد أنينا لأعماقنا بسرية تامة

كان جاري يشغل صمته بأي شيء ممكن بالرسم والشعر، وتعلم فن الطهي حتى أنه أخذ يتعلم الغزل والتطريز، وعندما برع فيه كان يغزل الشالات والمناديل ويقدمها كهدايا للأطباء، والممرضات، فكسب حظوة إضافية عند معظم العاملين بالمستشفى مما جعله يتقدم بطلب للإدارة بأن تقيم له معرضاً يعرض من خلاله كل أعماله المتنوعة.

كنت أشعر أن وجوده معي استحال إلى عذاب إضافي، فهو لا يهدأ ليلاً أو نهاراً ويصر أن يبقي الإضاءة بالليل لكي يتمكن من إنجاز أعماله المتنوعة، وحيال هذا الإزعاج المتكرر طلبت إن ينقلني أو ينقله من هذا المكان، فجاء طلبي مشفوعاً باعتذار رقيق، مبيناً بأن المكان الذي نشغله هو المكان المخصص للأمراض المستعصية! انشغلت عن جاري باجترار وساوسي التي لا تنتهي فكنت مع كل لحظة شهيق أوقن أنها ستكون الأخيرة، فأتبعها بدمعتي خوفاً من أن ألفظ حياتي عبر الزفير البطيء، وكلما أمعنت في ترقب الموت

يزداد يأسي وكرهي لتلك اللحظة التي تتباطأ في مجيئها، وما أن تأتي ساعة النوم حتى أحمل خوفاً من أن تسرق أنفاسي في غفلة مني، ولم تعد تقف في ذاكرتي سوى لحظة نضوب العاصفة المرعبة، فتذوب وتصبح صدري يموج بالخوف الذي لا يهدأ، وبعدُ دخت أمصال تلك الإبر في شغف الذبول والضمور اللذين اجتاحا جسدي.

ذات صباح أفقت على صياح ذلك المجنون، فوجدته قد استوى، وبيده ثمرة غريبة، وعندما رآني أحدق به زاد صراخه، فنهضت من سريري - لأول مرة أنهض منذ أن قدمت إلى المستشفى - وصدري يغلي غضباً منه، وتوجهت نحوه وأنا عازم على ضربه مهما كانت النتائج، وقبل أن أصل إليه كنت أسمعه يصيح بي

- انظر لقد أثمرت شجرتي.

شددت يدي، وهممت بإلقائها على صدغه لكني تراجعت حينما رأيته يمد لي بتلك الثمرة، وهو يتحدث بِبِشر

- يسعدني أن أقدم لك أول ثمرة أجنيها من شجرتي

أحسست بالخجل إزاء ابتسامته الواسعة وتودده، فتناولت تلك الثمرة وعدت إلى سريري والغيظ لايزال يأكل صدري. كنت أود أن أحطم رأسه وأرتاح من هذره الذي لا ينقطع، كان يتربص بي من مكانه، وعندما رآني أضع ثمرته جانباً دون أن ألمسها حدثني عاتباً

- أود أن تفرحني وتتناولها كأول وجبة صباحية

كانت عيناه أكثر إلحاحاً من كلماته، فاستجبت لطلبه على مضض،

وأدنيتها من فمي وقضمتها، وعندما أخذت ألوكها شعرت بطعم نتن كالجيفة، فواصلت قضمها وأنا أرنو إليه بتحد



٨

# جفت الدنيا

جلس على كرسيه وأخرج رسالة أحمد يقرؤها للمرة العاشرة، وفي كل مرة يجفف دموعه وينهض لتلبية نداء جرس الدكتور. في آخر مرة سمعت الدكتور يصيح به بانفعال:

– لم تعد صالحًا لشيء، والرأي عندي أن يعفوك من الخدمة.

وعندما عاد كانت عيناه حمراوين، وشيء ما يفور بصدره حتى يخيل إليك أنه سيستحيل إلى تنور، جلس على كرسيه المجاور لمقعدي وأخرج ثانية الرسالة، وأخذت عيناه الدامعتان تركضان بين سطورها، فاقتربت منه وقرأت:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الوالد العزيز محمدين أبو ركبة المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نبعث رسالتنا هذه متمنين من العلي القدير أن تصلك وأنت تنعم بالصحة والعافية وإن سألت عنا فنحن في خير وعافية لا ينقصنا سوى عدم رؤية وجهك الغالي. نخبرك بأن ابني جلال أصيب بالبلهارسيا ولم نتمكن من علاجه في البندر حيث طلب الدكتور أموالاً كثيرة، وقد بعنا البقرة لكي نصرف من ثمنها على بقائنا في البندر. نريد منك - أيها الأب الغالي - أن تبعث لنا ثمن العلاج في أسرع وقت خصوصاً ونحن نسمع من التلفزيون أنها تقتل مثل ما قتلت عبدالحليم حافظ - وفي ختام رسالتي يبلغك تحيات الجميع

المرسلة

زوجتك التي طال انتظارها

أم جلال

**ملاحظة: أبي الغالي:**
قرأت لأمي رسالتك الماضية ولم أفهم معنى قولك: جمعت الدنيا ولم تعد كما كانت.

أبي العزيز: لا تنس أن ترسل لي ما وعدتني به، فقد خجلت من زميلاتي اللاتي أصبحن يتهكمن عليّ كلما قلت: إن أبي سوف يرسل لي أساور من الذهب الخالص.

ابنتك المحبة

زينب بنت مصطفى أبو ركبة

حرر في ٦ - ٤ - ١٤٠٨

نبه لوجودي ومشاركتي إياه قراءة الرسالة، فاحتد وصاح بغضب

- ما تقوم به يسمى قلة أدب.

فشعرت بالخجل والحزن وركضت صوب الشارع لأمرق عجلي بعيداً عنه.

## تحقيق

حدق بي ملياً وحاول أن يبدو لطيفاً أجلسني بجواره، وناولني ورقة من رزمة الأوراق المحشورة في مقعده، وبتودد همس.

- اكتب
- ماذا أكتب؟
- اكتب حالتك النفسية

تناولت الورقة، وخططت خطاً عريضاً

**قرفان**

انطلقت من شفتيه ابتسامة مرتبكة، ورفع عثرته بيده اليسرى

- كننا ذلك الشخص، اكتب كلمة أخرى

وناولني ورقة جديدة، فأمسكتها وتمهلت، فدخل

– اكتب ولا تحاول البحث عن كلمة معينة، اكتب ما يخطر ببالك مباشرة .. اكتبه

فكتبت على الفور:

نكتة

– جميل: اكتبها الآن
– أقصد أن الحياة نكتة

أبدى تذمره. لا أريد أن تبتعدا عما جئت من أجله

ثم أنه رغبتي حتى تقول (عما جئت من أجله)، وما هو ذلك الذي جئت من أجله؟

– أنت تجيب فقط.

ناولني ورقة أخرى. قلت نكتة، أكتب أقرب نكتة تخطر ببالك

قلت: لا أعيها على مسامعك وكفى

رد بحزم: قلت اكتبه

أمسكت بالقلم وكتبت:

في أحد العروض العسكرية اصطف كبار الضباط للسلام على رئيس الجمهورية وبينما هو يتفحصهم كان بمعيته قائد كبير يقدم له

كبار الضباط لمستقبليه بينما كان الرئيس مركزاً نظراته على رتب الضباط ليصافح كل واحد وفق رتبته فكان القائد الذي بمعيته يقول له: قائد مشاة، قائد مظلات، قائد كتيبة، قائد طيران

فجأة لمح الرئيس قائداً (أحول) معلقاً عدداً كبيراً من النياشين وكانت نياشينه تفوق جميع زملائه فاستفسر الرئيس متعجباً عن صاحب هذه النياشين.

- قائد أحول وكل هذه النياشين على إيه؟

فأجابه القائد المصاحب له على الفور إنه قائد الخصوبات العشوائية سيدي!

آآآ هه هه هه

لم يجد استجابة لفهلوتي فصمت فجأة بينما حدق في ملامحي بعمق

- من يملك هذه الروح يجب أن يكون سعيداً؟
- . . . . .
- إذاً ما الذي يضايقك؟
- الوجود.
- لا تزيد فلسفة.

هذه ليست فلسفة، لو فكر أحدنا قليلاً لما احتجنا لكل هذا الكم من المآسي.

- أي مآسي تقصد؟
- ألا ترى أننا نأكل بعضنا؟
- حدد

- أنت مثلاً تضيق الخناق عليّ من أجل أن تثبت شيئاً ما لا أعرفه، وفي كل مكان ثمة شخص يحصر لأخيه، بينما الحياة أقصر من أن نقضيها في الدس المتبادل
- لقد انحرفت كثيراً عما نحن فيه
-
- اكتب كلمة أخرى.

دفع بورقة جديدة وهو يوصي كما اتفقنا، اكتب من غير أن تفكر كانت الورقة بيضاء وصقيلة، أمسكتها برفق وكتب

طز

اندهش ورفع حاجبيه وترك ملامحه تتعكر كما يحلو له وقتر
- طز لمن؟
- للحياة برمتها، فليس هناك جدوى من أي شيء، لذلك طز لكل شيء.
- كل شيء.. كل شيء؟
- نعم كل شيء كل شيء.
- حسناً

وانكب على كتابة تقريره، وعندما انتهى أدخله في ظرف ناصع البياض، وناوله للعسكري الذي كان يرافقني، وأوصاه أن ينتبه لي في الطريق. وبهمة مبالغ فيها أعاد العسكري إلى قيودي، وعبرنا ممراً طويلاً قبل أن تلفحنا أشعة الشمس المحرقة

وأمام الضابط وقفت حائراً وتجرأت وسألته
- ما الذي عملته حتى أقاد كالمجرمين؟

نظر إليّ باستخفاف وأردف: ستعرف بعد قليل

وفي لحظات وجدت نفسي أركب في سيارة لتنطلق بي بسرعة قصوى، نصف عشر دقائق وهي تنهب الأرض نهباً، نصف ساعة، ساعة، وبدأ الدوار يتملكني وظللت لنصف ساعة أخرى أعالج الغثيان بكل الوسائل، وعندما توقفت السيارة، وجدت نفسي أمام بوابة كبيرة كتب عليها بخط عريض

مصحة الحالات النفسية بالطائف.



www.1oplanet.net/vb

**مؤلفاته**

## صدر له:

**حوار على بوابة الأرض** مجموعة قصصية صادرة عن نادي جازان الأدبي ١٩٨٤

**لا أحد** مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ١٩٨٦

**ليس هناك ما يبهج** مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ١٩٨٨

**حكايات المداد** مجموعة قصص للأطفال صدرت عن نادي جدة الأدبي ١٩٩٤

**الموت يمر من هنا** رواية صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩٥

**مدن تأكل العشب** رواية صدرت عن دار الساقي بلندن ١٩٩٨

**من يغني في هذا الليل** مجموعة قصصية صدرت عن دار الراوي بالدمام ١٩٩٩

**الأيام لا تخبىء أحداً** رواية صدرت عن دار الجمل ٢٠٠١.

**ذلك البعيد**، رواية (تحت الطبع)

www.liilas.net/vb





مع الساعة الواحدة والنصف تكون قد أنهت دوامها المدرسي، يقذف بكل ما في يده ويظل منتظرا عودتها. تقف السيارة أمام المغسلة تماما. في هذه اللحظة (بالذات) تكون عيناه متفتحتين على اتساعهما فحين تدفع الباب تظهر ساقاها نافرتين من تلك الغلالة السوداء فتبين قدمان ممتلئتان مستديرتان تنتهيان بحذاء يتغير كل يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم عودها طاعنا الفضاء بقامة فارعة رشيقة، تلملم عباءتها على صدرها مخفية كمرتين تدرتين في استوائهما. تعبر الرصيف تاركة جسدها يراقص الهواء والأمكنة بينما تتوقف رائحتها لتحرس مشيتها ولتثبت الأمكنة في مواضعها كي لا تتساقط حجارتها كمدا على اختفائها. في كل هذا الارتباك يزهر بمقدمها بيت واحد إذ تدس فتنتها في بوابته الواسعة فيبتسم ويعبس للدنيا بإطلاق رفضه.

من الكتاب




ISBN 9953-21-070-5
9 789953 210704